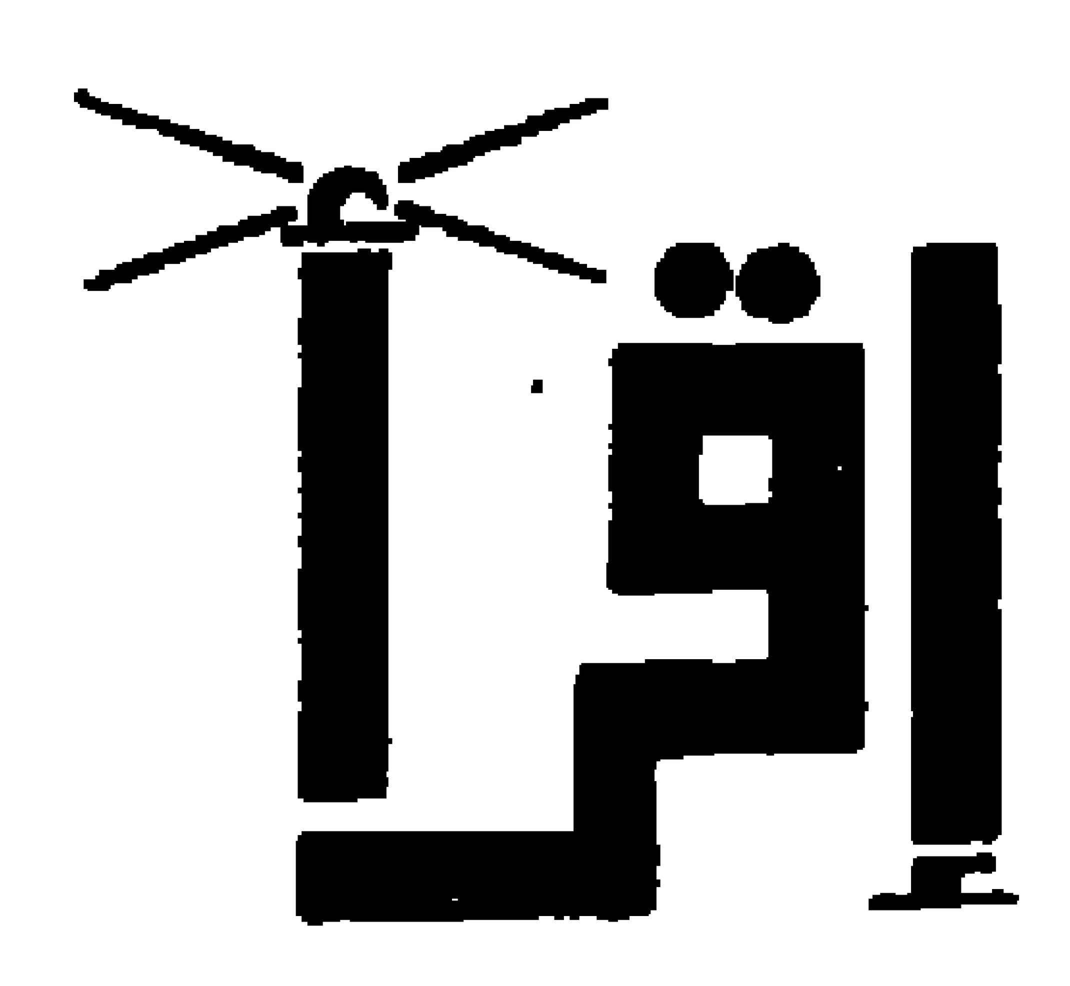


الدكتور السيد أبو النجا

ذكريات عارية



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان

دار المعارف بمصر



السيد أبو النجا

ذكريات عارية

اقرأ ٣٤٦
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٦ – أكتوبر سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

إلى الملايين

من المواطنين الصالحين

[illegible]

مقدمة

بقلم الدكتور شوقى ضيف

هذه ذكريات يشيع فيها ألوان من النقد الذاتى والموضوعى ، فهى ليست خواطر عن طفولة وصباً وشباب وكهولة ، وما بعد الكهولة فحسب ، بل هى أيضاً ملاحظات ناقدة عن الكاتب ونشأته وتربيته ، وعن بعض من عرفهم فى حياته : فى المدرسة وفى الأزهر ، وفى الجامعات المصرية والغربية ، وفى الصحافة وفى دور النشر ، منهم المدرس والعامل ورجل الأعمال والسياسى والصحافى وأستاذ الجامعة والوزير والطباع والآذن والموظف الكبير والصغير والفتاة المصرية والأوربية : أنماط متباينة من الناس ، وذاكرته تسجل وترصد ، وهو يلاحظ وينقد ، ويبوح ويمعن فى البوح والصراحة ، دون تحفظ أو مداورة أو مواربة ، ولا شك فى أن كثيرين سيحاكونه فى كتابة ذكرياتهم بهذه الصراحة المفرطة المحببة إلى النفوس.

ودائماً موقفان متقابلان يمتزجان : موقف الكاتب الراوى ، وموقف الناقد الساخر ؛ إذ يكثر الدكتور السيد أبو النجا من نقد كل شخص وكل شيء ، وينقد العادات الريفية التى كان يبصرها فى قريته الصغيرة ، وينقد نفسه فى كثير من تصرفاته مصوراً بعض عبثه فى صباه وبعد صباه ، على نحو ما يحدثنا عن ذكرياته فى الجامع الأزهر ، وضيقه بكثرة من كانوا ينامون فى ساحته وأروقته من الباعة وأصحاب الحرف ، فكان يتخذ من الورق مايشبه «ماسورة» ويحشوها لا بالتراب ، ولكن بالشطة ، ويستلقى بجوار أحد النائمين وينفخها فى أنفه فى أثناء شهيقه ، فينهض مفزوعاً ولا يعود بعدها أبداً . وينقد تربية أبيه له مصوراً كيف كانت تقوم على الخوف والقهر

مع البر والعطف والحنان ، ويعرضه دون أى حجاب حين يذكر عنه إلحاحه على مستر « فرنس » ناظر الخديوية الثانوية أن يعاقبه بالضرب المؤلم أمام رفاقه من التلامذة ، لأنه عبر عن شعوره الوطنى ذات يوم إزاء أحد مدرسيه من الإنجليز ، ولا يخفى أن زملاءه فى المظاهرات كان منهم الجرىء الذى يفتح لرصاص الإنجليز الباغين صدره غير هياب ولا وجل ، ومنهم المتخاذل الذى كان يفر على وجهه أو يستخفى مروعاً مذعوراً . ويصف حياة الأزهر وما كان يحفها من تخلف ، وحياة الأزهريين وقيامها على الشظف الشديد . وينقد نظام الكشف الطبى عند التحاقه بالتعليم العالى ، وكيف كان يضطر كليل البصر من أمثاله إلى الغش والخداع ، وينقد أيضاً نظام القبول فى هذا التعليم ، وكيف دفع به إلى مدرسة لا توافق هواه ، هى مدرسة التجارة العليا ، وكما يقول المثل القديم : رب ضارة نافعة . وينقد بعض أساتذته فى تلك المدرسة ، لأنهم لم يكونوا يرعون فى امتحاناتهم لطلابهم عهداً ، ويأسى لبعض الصحافيين أن يكون مثل دوّارة الريح ، فهو فى الصباح يكتب فى صحيفة حزب حتى إذا كان المساء كتب فى صحيفة خصومه بائعاً نفسه بثمن بخس دراهم معدودات . ويحمل على بعض من كانوا يتجرون بالحزبية ، كما يحمل على بعض المتسببين إلى الدين ممن لا يتجاوز عندهم أطراف اللسان وحركات أعضاء الجسم دون أن يمس ضمائرهم وسلوكهم . وينقد ما كان من شيوع المحسوبية البغيضة فى التوظف أيام أن كان الحكام يعزون ويذلّون ، ويبسطون الرزق لمن يشاءون ، ويكفونه عمن يشاءون دون وازع أو رقيب . ويسخر من نفسه سخرية مرة لولعه بالمظاهر حين أصبح مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة بالظاهر ، وتدور به الأيام دورات ، وتمده الصحافة ودور النشر بشخصيات كثيرة يضع كلا منها فى مكانه السوى ، وهو عادة من الشباب الممتاز ، ينزل أو ينزله — مكاناً عليًّا ، والمعوج — ينزل أو ينزله — مكانا زريًّا ، ويعرض بعض تجاربه

مع الناس مصوراً ما كان يهدى بعضهم لبعض من الشر والكيد والمكروه تصويراً لاذعاً .

وكل هذا النقد يجسمه الدكتور السيد أبو النجا فى أشخاص وأحداث ، ونحس أنه يحاول بقدر وسعه أن يتحرى الإنصاف مبتدئاً دائماً بإنصاف قارئه من نفسه فى ملاحظاته ، وفيما يطلعه عليه من خفيات حياته وأسرار عمله ونجاحه فيه ، حتى ليعترف بما استلزمه نجاحه أحياناً من بعض الخبث والدهاء . وقلما نشعر عنده بمبالغة ، إذ لا يوارى ولا يدارى ، وكأنه يريد أن ينقل الواقع نقلا مطابقاً له دون أى تزيد ، مما يطبع كلامه بطوابع الوضوح واليسر والسهولة ، وهى طوابع تشفع بغير قليل من السخرية والفكاهة والدعابة ، مما يملأ نفس القارئ شوقاً إلى متابعة القراءة حتى الفراغ من الكتاب .

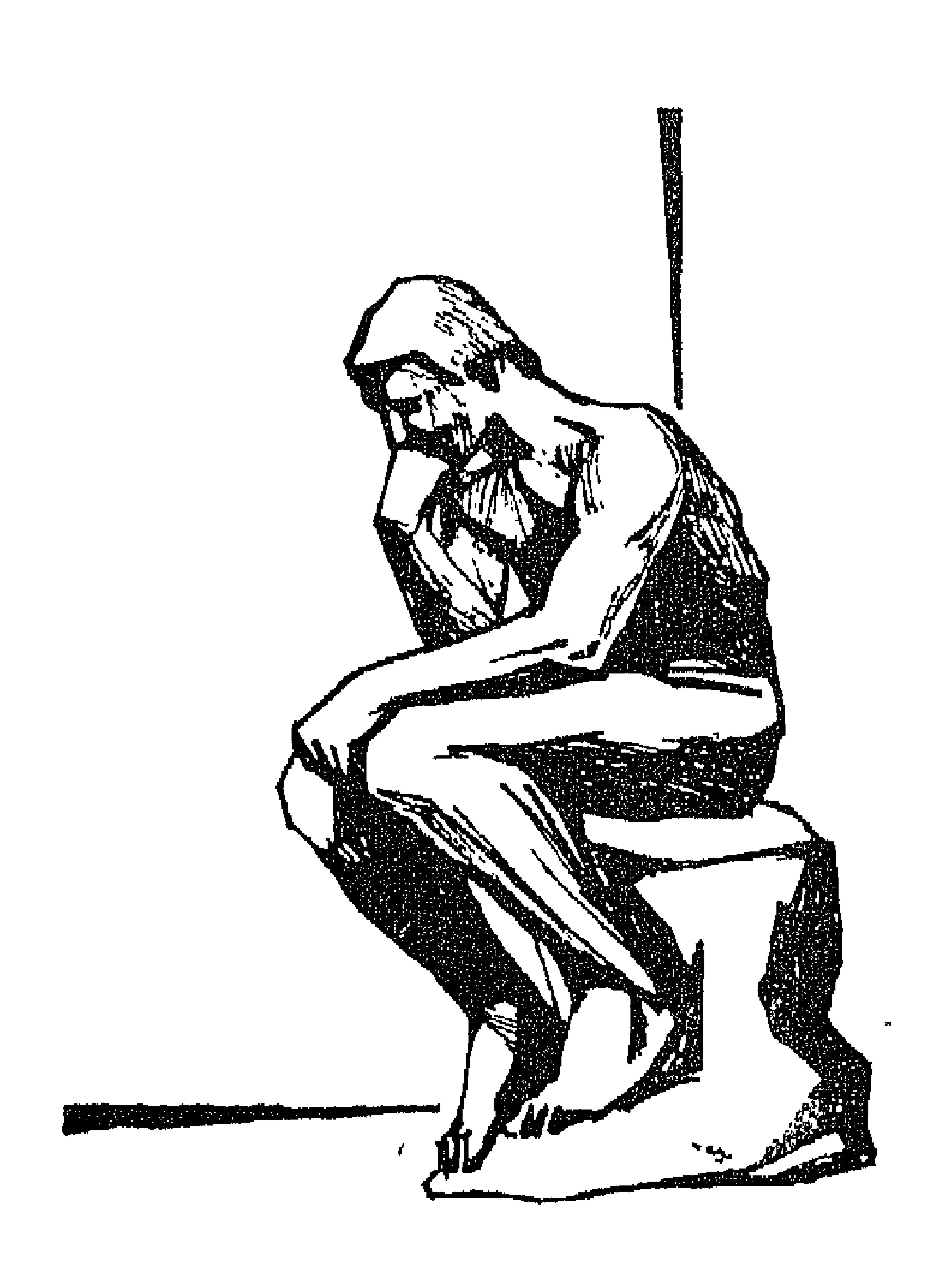
ومن أطرف ما نقرأ فيه من فكاهات خطبة لسيف الإسلام أحمد ، مندوب المملكة المتوكلية اليمنية فى مؤتمر فلسطين الذى انعقد بلندن سنة ١٩٣٨ ، بدأها بقوله : « أيها السادة ! إن الخلاف القائم بين الإنجليز والعرب سببه العفاريت » ! وتمادى سيف الإسلام فى هذه الخطبة المضحكة والمترجم المصرى يغير — وقد تصبب عرقاً — فى معانيها بما يلائم المؤتمرين ومؤتمرهم ، ونترك للقارئ إكمال قراءتها فى موضعها . ولعل كل ما كتب عن تخلف اليمن فى عهد تلك المملكة الحالك لا يبلغ فى التعبير والتصوير مبلغ هذه الخطبة التى لا تعد خطبة ، وإنما تعد عبثاً عقلياً كبيراً ، تهوى فيه من حالق كل قواعد المنطق ، حتى لنشعر بفقدان توازننا ، وإذا بنا نستغرق فى الضحك دون نظام ، أوقل فى فوضى كفوضى ما نقرأ من الكلام . وتلمع فى الذكريات من حين إلى حين بارقة الدعابة ، حتى فى أثناء ما يسرده الدكتور السيد أبو النجا من بعض الأحداث ، على شاكلة ما يرويه حين استقال من الجامعة ليدير شركة الأخبار المصرية لقاء مائة وخمسين جنيهاً شهرياً . بعد أن كان راتبه من الجامعة

خمسة وثلاثين جنيهاً لا غير ، قفزة أو وثبة لم تكن فى الحسبان . وقد مضى يذكر كيف كان يعيش براتبه الجامعى المحدود ، فقد كان يشترى الدجاجة فيشرحها تشريحاً ليتناول مع أسرته نصفها فى يوم ويحتفظ بنصفها الثانى ليوم تال ، بسبب ضيق ذات يده ، وكانت الفاكهة المشتراة بلحاً حتى ينتهى موسم البلح ، فتصبح جوافة حتى ينتهى بدوره الموسم ، وكان يسكن فى حى العباسية فانتقل إلى حى الزمالك الأنيق ، وكان أولاده يتعلمون فى المدارس الأميرية فنقلهم إلى المدارس الخاصة ، وكان يتنقل فى « الترام » فأصبح يتنقل فى سيارته وحده أو مع أسرته، كما أصبح يقيم الولائم الفاخرة للمتعاملين معه من أصحاب الأعمال .

ويلفتنا فى الذكريات تطور عقلى واضح لصاحبها فى مراحل حياته ، فهو فى نشأته محمل بخرافات وتقاليد كثيرة تلقاها من أسرته ومن بيئته التى أحاطت به ، حتى لنراه مندمجاً فى بعض الطرق الصوفية ، وما تزال خبرته بالناس من مختلف المنازع تدفعه إلى التفكير السليم ، وإلى أن يلقى عن كاهله أثقال التقاليد والخرافات ، حتى يوشك وهو فى التعليم العالى أن يتخلص من كل تلك الترهات . ويذهب إلى الغرب فى بعثة، فيتكامل تحرره العقلى ، ويستقر فى نفسه أن الغاية المثلى للمناقشة البحث عن الحقيقة لا غلبة الخصم وقهره، وأن المجاملة شيء والنزول عن الحق شيء آخر لايتصل منها بسبب . ونؤمن دائماً بصدق لهجته وشدة إخلاصه، وإن كنا نعتب عليه لإكباره الإنتاج ومغالاته الشديدة به ، حتى لتصبح الحياة بدونه شاحبة ، بل مقفرة كطلل مهجور ! وحقاً بدون الإنتاج تكون الكارثة أو الكوارث الاقتصادية ، ولكن ينبغى أن نذكر بجانبه دائماً معانى الحياة الروحية ، فليس كل ما فى الحياة إنتاجاً ، ولو صح ذلك لخلت الحياة من مباهجها ومفاتنها التى تغذى فينا الشعور بالجمال، ولأصبح الإنسان يعيش لينتج، لا ينتج ليعيش معيشة تسمو به إلى معانى الحق والكمال، إلا أن تكون هذه المعيشة نفسها ضرباً من ضروب الإنتاج.

ويؤكد الدكتور أبو النجا فى غير موضع من ذكرياته أن كل ما أصابه من توفيق أو نجاح إنما هو ثمرة ظروف عارضة خارجة عن إرادته ، وكأنه يريد أن يقول فى إصرار إن شيئاً من نجاحه أو توفيقه لم يؤد به إلى غرور ولا إلى ما يشبه الغرور . فهو يعرف قبل غيره قدر نفسه ، وهو تواضع حميد ، ومنه تسرى أسراب كثيرة إلى الذكريات، وتسرى معها بساطة مسرفة، ولعلها هى السبب فى عدم العناية بالأداء أحياناً واستخدام بعض الكلمات الدارجة . ولا أرتاب فى أن الدكتور أبو النجا يقصد إلى ذلك قصداً حتى يرفع الكلفة بينه وبين القارئ ، ويحل محلها ألفة شديدة ، وهو يستعين عليها بوسائل كثيرة ، بلغته اليسيرة وبصدقه وصراحته وتواضعه ودعابته ، مما يجعل هذه الذكريات خفيفة سائغة قريبة إلى نفوس قرائه .

هذه الذكريات



ليس فى نية الكاتب — وهو يتحدث عن نفسه — أن يتغاضى عن ذكر ما يؤهله للتقدير ، ليقول الناس إنه متواضع ، فهذا استجداء للثناء لا يرضى به بديلا عن الصدق . كما أن التواضع الذى قد يدعيه هو فى حقيقته مركب نقص ، لأنه خوف من الاتهام بالخيلاء .

وليس فى نية الكاتب أن يستعلى بنفسه على حقيقتها ، ففى هذا مجانبة للصدق، ومكاثرة بما لا يملك . كما أنه — لو حدث — يلغى قصده من كشف نفسه ، وهو أن يصل منها إلى ما يصعب تحقيقه على سواه ، فلو تصدى لكشفها غيره لكان على الأرجح أقل علماً بخباياها ، ولو كان أكثر موضوعية فى تناولها .

وليس يزعم الكاتب أن ما يقدمه فى هذه الذكريات من آراء يجىء بالضرورة مطابقاً للحق. كلا، فالرأى ينبثق من عقله كما ينبثق عند سواه. وعقله مغلوط فى بعض نواحيه . كما أن رأيه ينبع من مكونات كثيرة من بينها بيئته . والبيئة إناء يلون الرأى بلونه ، ثم إن الرأى يكتسى بنوازع صاحبه ، وهى تتسلل إلى قلمه دون علمه ، بل إن الرأى يخرج من بين ثقافته وخبرته وهما أصلا غير محايدين. والثقافة عصبية وإن لم تكن بالضرورة متعصبة ، والخبرة كلما اشتد عمقها بعدت عن الرأى وانحازت إلى الانطباعات ، فزادت من سيطرتها على حرية الفكر .

إن الكاتب يحكم عقله فى نوازعه قدر جهده، ويقيم فى نفسه حاجزاً بين عاطفته ورأيه قدر إمكانه ، ويجتهد فى التفرقة بين الصديق وصاحب الحق ، ولكن بعض الناس يحملون هذه التفرقة أحياناً على أنها تنكر للأول أو مجاملة للثانى . ومع أن الكاتب يجتهد فى تجريد نفسه أشد الاجتهاد ، فهو يعترف أنه لا يوفق فى هذا على الدوام ، لأنه كإنسان

لا يستطيع أن يفكر بعقله فقط ، وإنما يفكر بكل ما فيه من عقل وعاطفة وجسم صحيح أو عليل . إن برداً عارضاً أو اضطراباً فى الهضم قد يكون له تأثير خفى فى رأيه ، حتى لقد يكون فى حالة من الحزن أو الفرح فتمتزج هذه الحالة النفسية برأيه وتكون عنده نزوعاً لم يكن يتكون لولاها .

والكاتب يعتقد أنه مواطن صالح، فهو لا يدعى لنفسه أكثر من هذه المنزلة ، ولا يصطنع التواضع فيرضى بأقل منها . إنه يحترم القانون لأن القانون ناموس التعامل ، ويحترم الشرطى لأنه أداة القانون ، ويحترم رؤساءه لأنهم يمثلون الدولة ، ويحترم مرءوسيه لأنهم ليسوا أقل منه، ويحترم مواعيده مع الناس ، لأنه يعدها عقوداً بينه وبينهم .

إن له رأيه السياسى كمواطن مثقف ، ولكنه لم يحترف السياسة يوماً فى حياته ، وإنما احترف الإدارة علماً وعملا ، ووضعها فى خدمة بلاده . وهو يعتقد أن العالم العربى إذا كان متخلفاً عن أوربا وأمريكا فى التكنولوجيا فهو أشد تخلفاً عنهما فى الإدارة . ولو قورن المهندس العربى بالمهندس الأجنبى ، أو قورن الكيميائى العربى بالكيميائى الأجنبى لكان كل منهما أقرب إلى نظيره من المدير إلى المدير ، وعلى الرغم من أن الكاتب قد جاوز الستين فإن تفكيره الإدارى لم يشخ، لأنه لايزال ينمو. إنه يتتلمذ على تلاميذه كل يوم إيماناً منه بأنه إذا كان أستاذهم بحكم السن فيما مضى ، فبعضهم أساتذته اليوم بحكم ما تهيأ لهم من تفوق علمى .

والكاتب بهذا يرى أنه ليس أقل استحقاقاً للتقدير من السياسيين فمشكلتنا مع إسرائيل — قبل أن نزيل هذه الدولة — هى أن نكون أو ألا نكون . ومشكلتنا مع الاستعمار هى أن نبلغ سن الرشد فى استقلالنا ، ومشكلتنا فى الاشتراكية هى أن نصل بها إلى مضاعفة الدخل ، ومشكلتنا فى الاجتماع هى أن ننجح فى تحديد النسل والطلاق وتعدد الزوجات .

إن الكاتب يعتقد أن الطريق السوى للتحرر هو أن نكافح الاستعمار فى أنفسنا، فالاستعمار مرض مستوطن كالبلهارسيا والإنكلستوما لا يهاجم إلا الضعفاء والفقراء . والشعارات والمظاهرات لا تقضى عليه وإنما يقضى عليه العلم والإنتاج .

إن المبادئ لا تعيش إلا فى ظل الإمكانيات . فالنظافة من الإيمان، ولكن أين للفلاح الفقير أن يكون نظيفاً إذا لم يكن لديه ماء نقى وصابون ؟ والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها ، ولكن ألا يدل الواقع على أن الحاجة أم الانحراف ؟

لذلك فإن الكاتب يؤثر المحاضر على الخطيب ، ينصت للخبير أكثر من الأستاذ ، يفضل الندوة على الاجتماع العام . يستفيد من التقرير أكثر من المقال ، يخاف من اللمعان إذا لم يكن للذهب ، وينصرف عن رجل الدين إذا لم يكن هو نفسه إعلاناً حياً عن التدين .

والكاتب يعرف أن الحق وسط بين باطلين، ولذلك يكره التطرف، ويحب الوقوف فى أحكامه بين الجبن والاندفاع ، بين التقتير والإسراف، بين الإيجاز والإطناب ، وهو اتجاه لا يجعل منه شخصية فذة ، وإنما يجعل منه إنساناً سوياً .

ولكن لماذا يكتب وهو من رجال الأعمال ؟

مادام يتقيد بالصدق فهو يجيب : «إنه فى الحلقة السابعة من عمره، يشبع رغبته فى أن يسجل حياته . إنه يعرف أن علمه سيطوى بعد أيام أو بعد أعوام . وهو يود بهذه الذكريات الصادقة أن يبقى علمه مرفرفاً بعد مماته . إن الناس — لأنهم أخفقوا فى مد آجالهم — قد وجدوا فى الذكرى امتداداً طبيعياً لأعمارهم ، فعكفوا على إقامة التماثيل لعظمائهم ، وتسمية الشوارع والميادين بأسمائهم . واستخدم الأثرياء منهم أموالهم فى إقامة المساجد والكنائس والمستشفيات ، بل فى تشييد الأهرامات والمدافن . أما المواطنون العاديون — مثل صاحبنا — فهم يستخدمون قدراتهم فى رسم

الصور القلمية عساها تعيش . ولعل فكرة الموت ورغبة التخليد هما اللتان تعللان مجيء التبرعات من الأغنياء فى سن متأخرة ، وكتابة الناس مذكراتهم فى سن متأخرة كذلك .

ولكن الرغبة فى التخليد ليست كل شيء . إن وراء هذه الذكريات هدفاً أسمى هو أن يزيد إيمان الناس بالله . وإذا كان العلم يؤكد لنا أن لكل نتيجة سبباً . فإن الواقع يرينا أن من الناس من جد ووجد ، ومنهم من جد وأخفق ، كما أن منهم من لم يكن يستحق بعمله شيئاً من النجاح، ولكن الظروف هيأت له أكثر مما يستحق . إن هذا الكون لغز محير ، وما نعرف منه قطرة فى بحر من المجهول ، فعلينا ألا نيئس من الحياة إذا أخفقنا ، وألا نستنيم إذا أصبنا منها ما نبغى . ولنعمل لدنيانا كأننا نعيش أبداً ، ولكن لنؤمن دائماً أن للقدر يداً فوق أيدينا .

هدف آخر يكتب من أجله هذه الذكريات. إنه يقدم فيها نموذجاً لإنسان عادى بدل أن يتحدث عن الإنسانية . ولعل من الخير أن نتمثل شخصاً صحيحاً بدل أن نقرأ عن الصحة . ولعل من الأفضل أن نشاهد فتاة فقيرة بدل أن نقرأ عن الفقر . إن الإنسان لايزال أهم موجود على هذه الأرض ، فهو الذى اكتشف القارات والحاسبات الإلكترونية ، وركب متن الطائرات والصواريخ . ودراسته لا تزال أعقد من دراسة الميكانيكا والكيمياء ، فلعل هذه الذكريات تصلح صورة قلمية لاتجاهاته إذا لم تكن تحليلا علمياً لقدراته .

ولكن هل تأثر الكاتب فى عرض ذكرياته بالأيام لطه حسين ؟

إنه يحب القصص منذ كان يكتبه ، وهو طالب فى مدرسة التجارة العليا، فتنشره المجلات الأدبية — ومنها الرسالة — اعترافاً بمستواه . والقصص بعض بضاعته التى يقدمها الآن فى دار المعارف ، ثم إنه وجد نفسه منذ صغره فى توافق مع شخصية طه حسين ، بعد أن قرأ له كتاب «الأيام»، فعرف منه أن عميد الأدب العربى نشأ فى بيئة أزهرية كان هو يعيش فيها،

وأن نشأة العميد كانت حزينة، وكان الكاتب لا يزال يعانى هذه النشأة.
ثم إن طه حسين أصبح مديراً لجامعة فاروق والكاتب مدرس بإحدى كلياتها ، فأتيح له أن يرى طه حسين الجامعي بعد أن تابعه عميداً للأدب العربي .

وترك الكاتب الجامعة إلى الصحافة فاتصل بطه حسين وزير المعارف، ولمس فى تصرفاته اشتراكية أصيلة غير مطرقة صدر عنها مبدؤه المشهور : « التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن » .

ثم ترك الكاتب مهنة الصحافة إلى مهنة الكتاب ، فتولى نشر « الأيام » مع ما ينشره من كتب طه حسين . ورأى بالأرقام مدى إقبال القراء على هذا الكتاب وتأثرهم به .

على أن الكاتب اختلف فى الرأى مرة مع طه حسين وإن كان قد نزل أخيراً عند رأيه .

كان الكاتب مديراً لجريدة المصرى ، وكان يعمل معه صحفى يتأخر فى تقديم مواده، فتتأخر الجريدة بسببه . وبعد أن أنذره غير مرة فصله من عمله ، فوصل الخبر إلى الدكتور طه حسين ، وكان الصحفى أحد تلاميذه فى كلية الآداب ، فغضب لذلك غضباً شديداً ، وعلم صاحبنا بالأمر فاتصل تليفونياً بالدكتور ، ليعرف سبب غضبه ، ودارت بينهما هذه المناقشة :

— هل صحيح يا دكتور أنك غاضب منى ؟
— ومن أدراك يا سيدى أننى غاضب ؟ هل هى عقدة الذنب ؟
— أؤكد لك يا دكتور أننى لا أشعر بخطأ فضلا عن ذنب ، ولكننى أجد من واجبى أن أسترضيك حين تغضب .
— يا سيدى أنت مدير ، ومن واجبك أن تحضر وأن تنصرف فى مواعيد محددة . أما الكاتب فهو يكتب حين يستوحى لا حين تريد أنت .

— إنه — حين تعاقد معى على أن يعمل صحفياً — قد قبل أن يقيد نفسه بمواعيد الجريدة .

— لا يا أخى . إن حرية الكاتب لا يمكن تقييدها بعقود .

— ليكن . ويكفى هذا الصحفى أنه تلميذك لكى يستحق العودة إلى عمله . إننى كمدير أرى أن الحفاظ على صداقتك للجريدة كسب يزيد كثيراً على خسارتها بإعادة تلميذك .

— إنك تعتقد أن منطق المكسب والخسارة هو منتهى ما يصل إليه النجاح ، وأنا أؤكد لك أن فى الحياة من المثل العليا ما يعلو على هذا المنطق .

قلت : هذا درس جديد أضيفه إلى مكسبى . وانتهى الحديث .

لقد خرج الكاتب من هذه المناقشة بأن رجال الأدب لا يجوز مطالبتهم بأن يكونوا رجال أعمال . إنهم زهور تملأ الدنيا عبقاً ، والزهور تنبت فى الحدائق لا فى المصانع والحقول !

وماذا بعد ؟

أما بعد فإن هذه الذكريات محاولة صادقة لنقد ذاتى . والكاتب يرجو أن تنجح هذه المحاولة فتدعو إلى محاولات أنجح .



- ١٩١٦



لم يكن يوماً زعيماً سياسيًّا ، فلا هو انتظم فى عضوية إحدى لجان الطلبة خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها ، ولا دعا مرة فى إحدى المناسبات السياسية للإضراب فى مدرسته احتجاجاً أو ابتهاجاً . كان تلميذاً مجتهداً فقط : يحضر إلى المدرسة بحارة الروم فى موعدها المقرر ، ويدخل الفصل فى هدوء ، فيبقى فيه إلى أن يرى الأدراج قد خلت من حوله ، فيأخذ ماشاء من كتبه وينصرف إلى منزله فى الباطنية .

ولعل السر فى هدوئه أنه فقد أمه قبل أن يبلغ السنة الأولى من عمره ، فتولته إحدى المرضعات ، ثم أسلمته إلى إحدى الخادمات ، فلقى من جهلهما ما يلقاه أهل الريف من سحابة على العين ، وأمراض مستوطنة ، وخرافات تملأ الرأس الصغير ، وبقى الطفل يلعب الكرة « الشراب » مع أترابه فى أزقة القرية حتى دخل كتاب الشيخ «أبو درويش» ، ووصل فى حفظ القرآن إلى سورة القصص ، فأعد رأسه لدخول العمامة ودخول الأزهر .

ولكن قريباً له جاء مع أبيه يوماً فى زى الأفندية — وكان تلميذاً فى إحدى مدارس الإسكندرية — فأثار بزيه إعجاب أهل القرية جميعاً ، وكأنما كان يحمل عصا سحرية فإذا والد الصبى — وكان من شيوخ الأزهر — يدخل عليه منبسط الوجه والعمامة ويقول : « ستلبس بدلة مثل قريبك وتدخل المدرسة » .

وجاء يوم الرحيل إلى القاهرة ، فدارت الدنيا بالصبى من كثرة العوامل التى تدعو إلى فرحه والعوامل التى تدعو إلى حزنه . إنه يترك قريته الصغيرة إلى «مصر» ، أم الدنيا ، ليرى معجزاتها التى منها — كما كان يسمع — أن الماء ينساب فى ماسورة تمتد مع الحائط ، والنور يتدفق فى خيط يتدلى من السقف ، وأن الترام يجرى وحده فوق قضبان دون أن يجره حصان ، وأن

حديقة الحيوان فيها أسد يزأر وفيل ينأم ، وفيها من عجائب البحر ما يقلب الفلك وهى تسير . ثم إن فى مصر مسجداً لسيدنا الحسين ، ومسجداً للسيدة زينب ، فيهما تقام الموالد الحافلة والأذكار .

كان يطرب حين يفكر فى هذا كله ، ولكنه كان يحزن حين يخطر بباله أنه سيترك امرأة عمه إلى امرأة أبيه . إن الأولى هى التى قامت بدور أمه منذ فقدها ، فاحتضنته ، وأحاطته برعاية لم يكن يتمتع بمثلها طفل فى القرية . لم ترزق بخلف فصبت حنانها فيه ، وكانت فارسة تركب الخيل ، وزعيمة تسير على رأس نساء القرية كلما كان فيها محزنة ، أو كان فيما جاورها ما يستحق المشاركة . كان الصبى يحب القاهرة بعقله . ولكنه كان يكرهها بقلبه ، لأنه لا يستطيع أن ينتزع نفسه من دنياه الصغيرة التى نشأ فيها ، ومن ناسها الذين عايشوه ، ومن ساقيتها التى كان يطيب له أن يدور فيها حتى ينفد الماء من بئرها فتظهر الأسماك متخلفة فى القاع .

وركب القطار مع والده من « أبو كبير » لأول مرة . وفى حى الباطنية بالقاهرة قضى ليلته الأولى ، فلما كان الصباح ذهب به أبوه إلى بائع الملابس بالغورية ، وطلب منه أن يعد للصبى ما يلزمه لدخول المدرسة ، فاختار الرجل بدلة وحمالة وقميصاً وربطة عنق طواها جميعاً فى غلاف دون أن يستشير الطفل فى اللون أو الوالد فى المقاس ، فقد كان واضحاً أن هذه هى تجربتهما الأولى . ولم ينهض الوالد لممارسة حقه كمشتر إلا حين طلب منه الرجل جنيهين كاملين ، فاستعان الوالد بما يحفظ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وما روى عن السلف الصالح ، حتى بلغ التأثر بالرجل مبلغه فقبل أن ينزل بما يطلب إلى جنيه ونصف جنيه .

وجاء يوم المدرسة التحضيرية — وكانت الجمعية الخيرية بدرب الجماميز — فحاول الصبى أن يرتدى ملابسه ، ولكنه عجز . واستغاث بوالده ، فوضع الحمالة فى عنقه ، فلم تؤد مهمتها على الوجه المطلوب ،

ثم عرف من خرومها أنها لأزرار البنطلون ، ولكنه يدير أطرافها حول وسط الصبي فلا تستقيم ، ويمطها فتأبى أن تستطيل . إن فيها جهازاً للتطويل لا يستطيع أن يستخدمه، والساعة اقتربت من الثامنة ، فلم يجد سبيلا إلا أن يأخذ ولده فى ملابسه الداخلية إلى الطريق العام !

كانت الأسرة تسكن فى حارة ملتوية لا يغشاها أفندية ، كانت حافلة بصنوف من صناع الأحذية والمراكيب الذين لا يكفون عن الدق طول النهار وطرفاً من الليل . أما الأفندية فكان لهم مسار آخر يتصل بمفترق قريب ، وكان السكان يذهبون إلى هذا المفترق كلما احتاجوا إلى شيء من البقالة أو الفجل . وإلى هذا المفترق جاء موظف فى طريقه إلى المصلحة يشد حبات مسبحته فى عصبية بادية ، وكان يردد فى سره عبارات لا خشوع فيها ، وكأنه يتوجه إلى الله قائلا : «هات علاوة.. هات علاوة»، ولذلك لم يرتح له الشيخ أول الأمر، ولكنه — تحت ضغط الظروف — استوقفه ، وأخرج له ملابس الصبي من «البقجة» راجياً أن يدله على طريقة استعمالها . فارتسمت على فم الأفندى ابتسامة خفيفة ، ولكنه رحب بالمهمة ، وشرح للشيخ وظيفة الحمالة بشعبها الثلاث ، أما ربطة العنق فبقيت معقدة أشد التعقيد ، ولذلك قنع الشيخ برؤية ولده وقد استدارت الربطة حول عنقه .

وجلس الصبي فى الفصل شديد الضيق بمقعده الخشبي ، وبما يحيط بجسمه من ضوابط : فالحذاء فى قدمه ، والربطة فى عنقه ، والطربوش على رأسه ، والجاكتة تحوط صدره ، والبنطلون يشد بطنه ويفصل رجليه ، مع أنه كان إلى الأمس القريب يمرح فى القرية فى جلباب فضفاض ، ويلعب الكرة بقدميه العاريتين .

ولاحظ الشيخ سعيد مدرس الفصل أن الصبي لا يشارك زملاءه فى مرحهم ، ولا يشترك معهم فى إجاباتهم الجماعية عن أسئلته ، فناداه من بينهم ، وطلب إليه أن يطالع الصفحة الأولى من القراءة الرشيدة،

فإذا الصبي يلتهمها بعينيه التهاماً ويقرأها متدفقاً « أرنب . جمل . حصان . قطة . غزال . . » فدهش الشيخ سعيد لمقدرة الصبى . وسأله عن اسمه ، فأجاب فى نفس واحد : « السيد الصادق عبد المعطى أبو النجا من كفر عيسى أغا مركز فاقوس شرقية » ، فضحك الشيخ سعيد من سذاجة الصبي وسأله عن أبيه ، فأجاب فى نفس واحد أيضاً : « الشيخ محمد الصادق أبو النجا من علماء الأزهر الشريف بحارة الباطنية نمرة (٦) » . وكان والد الصبي قد لقنه كل هذه المعلومات ، وأعادها عليه مرات حتى حفظها خوفاً من أن يضل فى طرقات القاهرة فيتعذر عليه أن يدل على منزله .

قال الشيخ سعيد : « أين تعلمت يا شاطر ؟ » فأجاب الصبى : (حفظت من القرآن حتى سورة القصص فى كتاب سيدنا الشيخ « أبو درويش » وتعلمت الحساب حتى الكسور الاعتيادية فى مدرسة الشيخ عبد الواحد) . فربت الشيخ سعيد على كتفه وقال : «ماشاء الله. انتظرنى يا بنى بعد الدراسة فإنى أريد أن أذهب معك لمقابلة أبيك» . .

وحاول الشيخ سعيد أن يقنع والد الصبى بنقله إلى السنة الأولى فى مدرسة أخرى — ولم يكن فى مدرسة الجمعية الخيرية سوى السنة التحضيرية — ولكن الوالد أصر على ألا يرسل ولده — وكان فى السادسة — إلى مدرسة بعيدة فيتعرض فى الطريق لعربات الكارو والحنطور .

ولم يكن بالشقة التى يسكنها الصبى إلا مصباح صغير نمرة (٥) يضاء بالكيروسين يتداوله أفراد الأسرة فينتقلون به من غرفة إلى أخرى . ولذلك كان يستذكر دروسه فى الأزهر الشريف الذى كان يضاء بغاز الاستصباح. واشترى له أبوه مصباحاً نمرة (١٥) كان يربطه بحبل فى العمود فيضيف إلى نور الغاز نور الكيروسين. وكان لهذا الامتياز أثره فى التلاميذ الذين كانوا يستذكرون فى الأزهر ، فتقرب منهم كثيرون إلى الصبى ، ليسمح لهم بالمطالعة معه فى ضوئه .

وكان بين الأولاد تلميذ فى الجمعية الخيرية يتوسم فيه والد الصبى الفطنة والذكاء ، ففى إحدى الأمسيات جاء الوالد للتفتيش وسأل ابنه إن كان قد تعلم شيئاً من الإنجليزية ، فأجاب بالنفى ، ولكن هذا التلميذ خالفه فى خبث ، وأنشأ يلقى أحرف الأبجدية الإنجليزية فى تتابع — وكان قد حفظها من قبل — فظن الوالد أن التلميذ بدأ ينطق هذه اللغة فعلا بعد أيام قليلة ، وثار على ولده ، وأقسم ليضعن أرجله فى الفلقة ، فبكى الصبى ماشاء الله له أن يبكى ، وضحك زميله ما شاء الشيطان له أن يضحك .

وجاء يوم عقد فيه الشيخ سعيد امتحاناً لتلاميذه ، وأعلن قبله أن من يكون الأول سيعين « ألفة » على الفصل ، فسعد الصبى بهذا الإعلان ، لأنه كان يطمع فى أن يكون على رأس فصله ، ولكن شيئاً خفياً كان يقلقه ، فماذا يحدث ياترى لو ظهرت النتيجة دون أن يكون فيها «الأول»؟!

وعلى الرغم من هذه السذاجة البادية كان الصبى أول التلاميذ وصار الأول فى السنوات كلها بعد أن انتقل إلى مدرسة العقادين حتى حصل على الشهادة الابتدائية . وذلك لأن دراسته الأولى فى كتاب الشيخ « أبو درويش » ومدرسة الشيخ عبد الواحد كفلت له تفوقاً على أقرانه فى اللغة والحساب ولكن ذهنه بقى ريفياً لم يتفتح . كانت معلوماته أكثر . . . وثقافته أقل .

كانت دنيا الصبى تحدها تلال المقطم من الشرق وميدان العتبة الخضراء من الغرب . وكانت السوق هى الغورية والسكة الجديدة . أما الموسكى فللأغنياء فقط : فى وسطه محل الجمال للملبوسات وفى نهايته محل الماوردى للمفروشات . وما بعد العتبة الخضراء حرام على المصريين ، لأن محال سلامندر وشيكوريل وشملا أجنبية للمبرنطين : الحديث فيها رطانة ، والداخل إليها يتمتع بالامتيازات الأجنبية ، والأسعار فيها فوق دخول الفلاحين والموظفين .

وكان صاحبنا لايرى بأساً فى أن يخرج بالشبشب ، لكنه إذا نوى الذهاب إلى العتبة لبس مايساوى عنده «البنجور» ، وهو الجاكتة فوق الجلباب

مع الطربوش والحذاء . فإذا كان الجو حاراً فى الصيف ركب «سوارس» بثلاثة مليمات ، وإذا ارتفع مافى جيبه إلى خمسة مليمات ركب أوتوبيس سيد يس ، وتلفت ذات اليمين وذات الشمال عساه يرى أحداً من أصدقائه سائراً على قدميه ، فيحييه ، ليلفت نظره إلى العز الذى هو فيه .

وكان يقضى عصر الخميس بالتناوب بين شبرا وقصر النيل مع بعض من يكبرونه سناً من الأزهريين. أما شبرا فبقرب النيل لغسل الملابس ونشرها ، ثم إنفاق الوقت فى لعب الكرة حتى تجف ، وأما قصر النيل فلمص القصب حيث كان يزرع فى أرض المعرض الحالية . وكانت الجماعة تدفع قرشاً واحداً تشترى به من الزراع عشرة عيدان تجد فى مصها حتى إذا أتت على أغلبها بدأت تعتدى على العيدان المزروعة حتى تحس بالاكتفاء فتجهز على ما بقى من عيدان مشتراة .

كان صاحبنا ينفق فى هذا ومثله أوقات فراغه لأنه كان لا يحب بيته . إن أمه ليست فيه ، وامرأة أبيه تعطيه ابنتها الصغيرة ليحملها ، فيضيق بها بعد حين ، فيقرصها فى فخذها لتبكى ، ثم يتظاهر بإسكاتها ، فتقبل أمها عطفاً عليها ، ولكن الأم كانت تعنفه على خيبته فى مداعبة أخته ، وتغلظ له فى القول أحياناً كثيرة . والبيت كان فراغاً كله إلا من سرير والده الذى يمثل المرتفع الوحيد فى الشقة . كانت الأرضية من البلاط المعصرانى ، وكان لكل فرد حشية ترفع من مكانها متى قام من نومه . والطعام يتألف فى أغلب الأحيان من مستخرجات الفول حتى يجىء يوم الجمعة فيتحلق الجميع حول طبلية عليها رطل من اللحم المسلوق وطبق من الثريد .

لقد كان أبوه يتقاضى فى الشهر ثلاثة جنيهات ، ينفق منها ثمانين قرشاً فى إيجار الشقة ، ويعتمد فى الخبز على « الجراية » وهى ستة أرغفة تأتيه يومياً من وقف خيرى ، مع تكملتها بدقيق يأتيه من أرض زراعية يملكها فى الشرقية ، فيخبز منه فى فرن البيت ما يكمل به حاجة الأسبوع .

وقد جرى العمل على أن تباع الجراية صباح الجمعة مادام فى البيت خبز طازج ، وبالثمن تشترى وجبة فول . وكان صاحبنا يقوم بهذه المهمة فيدور بالأرغفة فى سوق الجراية على من يتوسم فيهم الرغبة فى شرائها ، ويعود فيأخذ طبقاً كبيراً يملؤه فولا وزيتاً .

وفى أيام الدراسة كان أبوه يعطيه خمسة مليمات يشترى بها إفطاره ، ويلف له رغيفاً وقطعة من الجبن أو العجة لغدائه ، فإذا لم يكن فى البيت ما ينفع للغداء أعطاه خمسة عشر مليما للإفطار والغداء معاً ، وترك له حرية التصرف . وإذا بدت هذه المعاملة قاسية اليوم فإن وقعها على صاحبنا لم يكن بمثل هذه القسوة . فقد كان ينظر إلى المخالطين له من الأزهريين فيجد نفسه أحسن منهم حالا وأكرم مستوى . كان يرى الأزهرى يشترى من بائع الطرشى بمليمين هو مع الخبز كل غدائه ، ويعود إلى نفس البائع فى المساء برغيف يطلب منه أن يرش عليه شيئاً من ماء اللفت ، فيكون الرغيف المبلل كل عشائه . أما وليمة الأسبوع فهى طبق من الفول المدمس يطهى مع سمن من المحلبة وبصلة مما فى الخزانة ، أو هى طبق من الطعمية يشترى من عند « مهيأ » ومعه بعض الطحينة . وحين نبلغ السعة مداها يجتمع الفول والطعمية فى وجبة واحدة ، فتنتقل الأيدى من لون إلى لون. وإذا سخا الأزهرى على نفسه انتقل إلى «المسمط» فطلب ثريداً ولحم رأس بقرش كامل. أما الأطعمة الأخرى كالكباب والفاكهة وصنوف الحلوى فلم تكن فى رأيه للتغذية، وإنما كانت للتفكه مرات فى السنة !

وكان الأزهر معهداً ومسجداً ومسكناً : يتعلم فيه الأزهرى ويصلى ويعيش . ومتى جاء الليل تحول المسجد إلى ساحة للنوم تحتوى مئين من ذوى العمائم والطرابيش والطواقى ، وتضم الطلاب والمقرئين والشحاذين . وفى رمضان يكثر عدد المقرئين فى العاصمة فيتوافدون فى المساء على الأزهر ليناموا على حصيره ولينعموا بدفئه ، ومعهم ما جمعوه فى المقابر من بلح وفطير .

وفى إحدى الليالى ضاق الصبى بهؤلاء المتطفلين ، فتآمر مع زملائه على مطاردتهم . لقد حشا كمية من الشطة فى ماسورة من الورق ، ورأى حانوتياً مستغرقاً فى النوم ، وقد أسند رأسه فوق ربطة مما أعطاه الله فى أثناء النهار ، فنام إلى جانبه ونفخ الشطة فى أنفه فى أثناء شهيقه ، فنهض واقفاً من أثر ما حل به ، وإذا هو يرى صبيين يجريان وفق ترتيب سابق فجرى فى إثرهما ، وقام الذى كان نائماً فنثر ما فى الربطة على أرض المسجد . وتجمع الأزهريون من كل مكان ليأكلوا ويشمتوا . وتكرر هذا الفصل مرة بعد أخرى مع المقرئين والحانوتية حتى امتنعوا جميعاً من غشيان الأزهر.

ومهما يكن من شيء فقد كان هذا الحى جميلا فى جميع فصول السنة إلا فى الشتاء حيث ينزل المطر ، فتتحول الحوارى إلى بحيرات يتعذر السير فيها ، فيجد باعة البطاطة من الأربح لهم أن يتحولوا عنها إلى استخدام عرباتهم فى نقل الآدميين .

وقد ينزل المطر على الأسقف الخشبية للمنازل فلا تحجبه عن الغرف ، وإنما تفسح له الطريق ، فإذا السكان يستقبلونه فى جرادل يضعونها فى وسط الغرف ، ثم يستديرون حولها فيتبادلون الحديث على خرير الماء حتى يمتلئ الجردل فتحمله إحداهن لتفرغه فى الحمام ، ثم تعود به ليؤدى رسالته من جديد .

ولكن هذا الحى مع ذلك كان مسرحاً لأحداث سنة ١٩١٩ . كانت المظاهرات العاتية تتجمع فى صحن الأزهر ، ثم تتدفق منه هائجة غاضبة بعدما سمعته من الخطب والقصائد . وإن صبينا ليذكر سعداً وهو يعتلى منبر الأزهر بعد صلاة الجمعة ، ويذكر الشيخ مصطفى القاياتى وهو ينشد قصيدته عن تهجم الإنجليز على مساكن الفلاحين بالبدرشين فيقول :

أوَما علمتم ما جرى　　بالبدرشين من الدمار
سلبوا الحلى من النسا　　ء وخربوا البلد العمار

ويذكر من قصيدة حافظ إبراهيم فى مظاهرة قامت بها السيدات قوله :

خـــرج الغوانى يحتجج ... ن ورحت أرقب جمعهنه

وأخذن يجتزن الطـــريـ ... ـق ودار سعد قصـــدهنه

وإذا بجيش مقبـــل ... والخيـــل مطلقة الأعنه

وإذا الجنـــود سيوفها ... قـــد صوّبت لنحورهنه

والورد والريحـــان فى ... ذاك النهـــار سلاحهنه

فتطاحن الجيشان سا ... عات تشيب لها الأجنه

فتضعضع النسوان والـ ... ـنسوان ليس لهن مُنه

فليهنأ الجيش الفخـــو ... ر بنصره وبكسرهنه

وهذا الشعر السياسى يعود بذاكرة صاحبنا إلى وراء ... إلى واقعة دنشواى التى قال فيها شوقى :

يا دنشواى على رباك سلام ... ذهبت بأنس ربوعك الأيام

كيف الأرامل فيك بعد رجالها ... وبأى حال أصبح الأيتام

نيرون لو أدركت عهد كرومر ... لعرفت كيف تنفذ الأحكام

السوط يعمل والمشانق أربع ... متـــوحدات والجنود قيام

والمستشار إلى الفظائع ناظر ... تدمى جلود حوله وعظام

راجت سوق الشعر فى الحى بسبب السياسة ، فعالج غيرها من الأغراض ، فلما عاد الشيخ النجدى شيخ « الشراقوة » من الحج استقبله الشيخ الأحرازى بقصيدة كان مطلعها :

عجبى لبحر فوق ظهر سفينة   كيف استطاعت أن تسير وتعبرا

ولما رقى الشيخ محمد شاكر سكرتيراً عامًّا للأزهر هنأه الشيخ الأحرازى بقصيدة قال فيها :

تنقل فدتك النفس فالمنصب الأعلى   يناديك أهلا مذ رآك له أهلا
خطبت له كفئاً كفيلا بمجده   خبيراً به شيخاً مهيا له طفلا

لقد اندمج الصبى فى وسطه الجديد ، ولكن قريته بقيت حبيبة إلى قلبه ، يحن إليها كلما انتهت السنة الدراسية ، وقربت إجازة الصيف ، وقد كان يستعد للسفر فيشترى فانلات ملونة ذات كم طويل وجلبابين من الزفير الفاخر وزجاجة من القسيس ذى العطر الحاد وعصا من الأبنوس يتوكأ عليها فيبدو كبير المقام . وهو لا يزال يذكر صيف سنة ١٩١٩ ، فقد نزل من القطار فى ههيا ، لأن القطار تعطل فيها ، وامتطى دابة كانت فى انتظاره ، لتحمله إلى كفر عيسى . وفى الطريق مر علي بلدة شرشيمة فإذا فلاح منها يتعرض له ويطالبه بالنزول من على حماره ، فلما سأل الصبى مرافقه عن سبب ذلك ، طلب إليه أن يطيع ، فالبلدة واقعة فى تفتيش أحد الأمراء ، والأمير هناك . وسار الصبى مطرقاً مع مرافقه خلف الحمار ، حتى جاوز البلدة . . وأدرك الصبى أحد الأسباب التى أدت إلى قيام ثورة ١٩١٩ ، وإن بقيت غير معلنة . .



١٩٢١ -

اشتد عود الفتى ، بعد أن أصبح مراهقاً يقف على أبواب الرجولة ، وكان يستعجلها فيحلق ذقنه قبل أن ينبت بها شعر . ويدخن أمام الناس برغم أن التدخين يسبب له السعال ، ويمسك فى يده « منشة » يهش بها على نفسه دون أن يكون فى الجو ذباب ولا ناموس .

وقد بدأ يتأذى من أثر كى بالنار فى قفاه أحدثه أعرابى ليشفيه من حمى أصيب بها وهو صغير . فكان يسير وقد شد رأسه إلى خلف ليمتد شعره فوق قفاه فيغطى أثر هذا الجرح . وكان شد الرأس يستدعى شد القامة ، وشدها يفرض مشية فيها خيلاء .

ويبدو أن الشعور بالنقص من أثر هذا العيب الجسمى قد انقلب بمضى الوقت إلى شعور بالاستعلاء ،فقد لاحظ الفتى أنه حصل على الشهادة الابتدائية ولما يصل إلى الثالثة عشرة من عمره ، ورشحه مجموع درجاته لأن يدخل المدرسة الخديوية ، وكانت تتقدم المدرستين الأخريين فى القاهرة ، وهما التوفيقية والسعيدية . يضاف إلى هذا أنه متفوق فى النحو والصرف ، لا يكاد الشيوخ من أعمامه يرونه مع أبناء عمومته حتى يمطروهم بوابل من الأسئلة فى إعراب جملة معقدة مثل « ف القنديل زيتاً » وفى تحويل المبنى للمعلوم إلى مبنى للمجهول مثل: « كان الله فى عونهم» ، لتصبح « كين فى عونهم » وفى اسم الفعل لتتحول جملة « اجلس ياغلام » إلى « جلاس ياغلام » وفى اسم الإشارة للمؤنث السالم مع التأكيد لتصبح « هؤلاء » هؤلياتكن .. إلى آخر هذه المعميات التى لا تؤدى إلى تبسيط اللغة وتحبيبها إلى التلاميذ ، وإنما إلى تعقيدها وإبعادها عن أفهامهم الصغيرة .

وكان تفوقه فى حل هذه المشكلات اللغوية يزوده بشحنة من الاعتزاز بالنفس ، فيتيه على أترابه بعلمه ، ويستعلى عليهم باستقامته . ولكن

فتيات الأسرة كن يفضلن سائر الفتيان عليه ، لأنه كان فى رأيهم « كفقهاء الكتاتيب ومشايخ الطرق : لا يعرف النكتة الحلوة ، ولا المرح الجذاب . لقد تأخر به الزمان فعاش فى غير زمانه » .

كانت القاهرة تغلى بالثورة ، وكان الرصاص يتساقط كالمطر من بنادق الإنجليز ، وكان القناصون من الطلبة والعمال يصطادون الإنجليز فى الشوارع وعند خروجهم من المكاتب ، وكانت الاجتماعات والخطب سبيل التوعية للشعب كلما صودرت الصحف واحدة بعد أخرى .

وأراد الفتى يوماً أن يعبر عن كراهيته للإنجليز ، فاتفق مع عدد من رفاقه فى الفصل على ألا يقفوا للمدرس الإنجليزى حين يدخل . وكان ناظر المدرسة هو مستر « فرنس » . فلما بدأ التحقيق سأل الفتى لماذا لم يقف ؟ فأجاب : « كنت أبحث عن ريشتى التى وقعت تحت التختة » فسأل التلميذ الذى يجلس خلفه فقال : « كنت أعطيه إياها » ، فاستشاط الناظر غضباً ، وقضى بسجن الاثنين ثلاثة أيام ، والسجن كان فى زنزانة مع الخبز الحاف . فلما كان العصر لم يعد الفتى إلى بيته فى الموعد ، فبحث عنه والده فى كل مكان إلا فى المدرسة . ولما عاد فى المساء ، وعرف منه الخبر ، ذكره بمبدئه الذى كان يعيده عليه دائماً وهو أنه يضرب ابنه ظالماً أو مظلوماً ، ولكنه اكتفى بتعنيفه هذه المرة حتى الصباح . وذهب إلى الناظر يستفسر عن جلية الأمر ، فلما عرف منه ما حدث ألح عليه ألا يترفق بولده ، وأن يضربه فى فناء المدرسة أمام سائر التلاميذ شرط ألا يحرمه الدروس . فرق قلب الناظر ، وأخذ يتلمس المعاذير للفتى ، ثم صفح عنه وعن زميله .

فيما عدا هذه الحادثة لا يذكر الفتى أنه كان محرضاً على شىء . كان يسير مع إخوانه فى المظاهرات فتدفعه فى سيرها إلى حيث تنتهى ، أو إلى حيث تفرقها الشرطة ، فيبحث عن نفسه فإذا هو فى مكان لا يعرفه . فيسأل الناس عن الطريق حتى يصل إلى حى الأزهر حيث يسكن .

لقد أصبحت المظاهرات لكثرتها شيئاً عادياً فى حياته ، ولم يكن يفهم لها هدفاً سوى أنها بديل عن الدروس : تبدأ بالتصفيق ، فيكون دعوة إلى التجمع فى فناء الكرة حيث يعتلى القائد كتف أحد إخوانه ويهتف : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ، فيردد الجميع هتافه ، وتدب الحمى فى نفوسهم فيتدفقون نحو الباب الخارجى ، ويسدون المسالك فى الحلمية حتى يتركوها إلى حى لاظوغلى . ولم يكن الفتى يعرف سبباً لاختيار هذا الحى بالذات فى كل مرة ، حتى أخبره أحد زملائه أن الوزارات تقع فيه . وكان يقع فيه أيضاً بائع فول متخصص فى بيع الشطائر : يملأ الرغيف فولا وطعمية وفلفلا أخضر وطماطم ، ويبيع ذلك كله بخمسة ملاليم ، فيزود الفتى نفسه بواحد من هذه الأرغفة المنبعجة ليقوى على السير وترديد الهتافات . وكانت المظاهرات تلتقى فى الميادين فيمتزج بعضها ببعض ، وتكبر حصيلتها، ويستفحل أمرها ، فلا يرى رجال الشرطة بدءاً من استخدام خراطيم المياه فى تفريقها . ويعود الفتى إلى أبيه مبتل الملابس فيعنفه أشد التعنيف .

وكانت النفوس البشرية تظهر على حقيقتها عند ظهور الشرطة . فمن الناس من يثبت فى المعركة ، فيتناول الأحجار ويقذف بها فى وجوه الإنجليز ، ومنهم من يقذفها فى كل ناحية فيصيب بها الجنود المصريين وزملاءه من المواطنين ، ومنهم من يجرى إلى أقرب برميل للنفايات فيختفى فيه ، ويطل برأسه بين وقت وآخر ، ليحض الناس على الثبات فى المعركة ! ومنهم — مثل الفتى — من يجرى إلى الأزهر فيفتح كراسته ويعمل القلم فيها على التو .

كانت الدراسة تعتمد على القوة الحافظة فى التلاميذ ، وعلى القدرة التلقينية فى المدرسين . كان مدرس الجغرافيا يمتحن تلاميذه فى المحطات التى يقف عليها القطار فى سفره من القاهرة إلى الإسكندرية ، فيجيب التلميذ : قليوب — بنها — طنطا .. فيضربه المدرس بالمسطرة على يده

قائلا : « نسيت شبرا » فيقول التلميذ : « القطار إكسبريس يا أفندى » !
وكان الفتى يحفظ كتاب « عمر الإسكندرى » فى التاريخ عن ظهر قلب ، وتظل المحفوظات طافية فوق سطح ذهنه حتى يجىء الامتحان فيفرغها على ورق الإجابة مادة أولية لم تتفاعل فى نفسه ولم تتحول إلى ثقافة . وقد هم يوماً بحفظ قاموس أكسفورد ليتعلم اللغة الإنجليزية دفعة واحدة .
وكان مدرس اللغة العربية يعطى الفصل نماذج من الإنشاء يطلب من التلاميذ حفظها ، ويذكر منها الفتى نموذجاً عن المطابع هذا نصه :

« هى المطابع . فحدّث عنها ولا حرج . فإنما الشىء بآثاره . والرجل بأعماله ، والسيف بحده ، انظر بما تقدمت الأمم وارتقت ، وأخذت زخرفها وازينت . وبما استنارت عقول أفرادها ، واتسعت مداركها ، وهديت الصراط المستقيم ، ونالت الخير العميم ... » إلى آخر هذه الألفاظ المصفوفة .

ولم يكن هذا الاتجاه غريباً على الفتى ، فهو من بيئة أزهرية . كان يرى أخاه فى الأزهر يحفظ الحساب حفظاً ، فإذا جاء الامتحان لم تخرج الأسئلة عن عدد مختار من المسائل التى درسها الطلاب فى أثناء السنة بنصها وأرقامها . وكان أخوه يكتب الحلول على ورقة الإجابة من حافظته لا من تفكيره .

وكان الشيخ فى الأزهر إذا تكلم عن الفاعل والمفعول استشهد بالجملة التقليدية « ضرب زيد عمراً » ، وكان الطلاب يستشهدون أيضاً بهذه الجملة ، فلا يجرؤون على جعل الضارب محمداً والمضروب بكراً . وقد سمع الفتى أن أحد المجددين من الشيوخ قال لأحد القدامى : « ارحم عمراً من ضرب زيد إياه » فرد عليه : « والله لا أرحمه حتى يرد الواو التى سرقها من داود » !
وكان النقاش بين الشيوخ إذا احتد ، وأراد أحدهم أن يتهم صاحبه

بعدم الفهم، قال له : هل أتحدث إلى « ما »؟ مشيراً إلى أن « من » للعاقل و « ما » لغيره !

ومضى الفتى يدرس فى الخديوية حتى جاء إليها يوماً مدرس من خريجى دار العلوم عاد من بعثته فى إنجلترا ، فتولى تدريس اللغة العربية للفتى فى السنة الرابعة ، وقلب تدريسها رأساً على عقب . لقد طلب إلى تلاميذه أن يكتبوا فى الموضوع الذى يختاره كل منهم ، فكتب بعضهم فى الحب ، وكتب واحد عن « وردة على غصنها تتكلم » وكان الفتى متصوفاً فأنشأ يقول :

إلهى أنت رب العالمينا ... فحاسبنا الهوينا أجمعينا
بعدلك لاتحاسبنا ولكن ... بفضلك سع جميل المسلمينا

ولفتت هذه الأبيات نظر الأستاذ هاشم — وهذا اسمه — فطلب الفتى وسأله عن نفسه ، فأنهى إليه أنه من مريدى الشيخ منصور « أبو هيكل» أحد مشايخ الطرق ، وأنه يكثر من الذكر تقرباً إلى الله ، عسى أن يصل يوماً إلى أن يكون شيخ طريقة . فأعجب الأستاذ هاشم بشخصية الفتى ، وأشعره بصداقته ، وشجعه على قرض الشعر .

وفى الأسبوع التالى كان الفتى قد وضع قصيدة فى الغزل قال فيها :

حسناء تهجر حبها ... فتزيده حباً لها
وتميل عنه كلما ... طلب الرضا ووصالها
فدعا الهوى كى يشفعا ... إن كان أذنب عندها
لكنها أبت الوصال وآثـ ... ـرت هجرانها
تعساً له خاب الرجا ... سلب الفؤاد فليتها
وأدته . ذاك ولا البقاء بحـ ... ـالة يرثى لها
يا أخت يوشع خبرى ... لو قيست الدنيا بها
أيكون ذاك تحدثاً ... بالحسن أم ذماً لها ؟

فاستشعر الأستاذ أن الفتى يحب ، وأنه خاب فى حبه ، فطلبه

فى غرفة المدرسين ، وهناك روى لأستاذه قصته :

« جاءت ثريا مع أبيها وأمها من الشرقية ، وكان والدها أفندياً لم يكمل تعليمه ، فقدم يطلب عملا فى القاهرة ، ونزل مع أسرته ضيفاً علينا ، وكان من أقربائنا .

« كانت ثريا فارعة العود فى سن ١٤ ، لها شفتان فيهما نداء يستهوى كلما ابتسمت ، ويهمس بالإغراء كلما سكنت . كانت تتحرك أمامى فتحرك عاطفتى من الأعماق . تواجهنى فأغضى حياء من نظرتها ، وتستدير فتستقر نظراتى على كل جزء من جسمها لتمضغه عيناى . كانت فتاة وأنا فتى ، لولا أننى كنت مرتبطاً بعهدى مع الشيخ منصور . . هذا العهد الذى كان يفرض على أن أتوجه بحبى إلى الله ، وأن أحصر طاقتى فى التهجد والذكر ، وأن أنفق فراغى فى قراءة القرآن ودلائل الخيرات .

« وخفق قلبى يوم جاءتنى والدتها ترجونى أن أساعد ثريا قليلا فى الحساب لكى لا تنساه فى أثناء تغيبها عن المدرسة . لقد غمرتنى السعادة لهذا الرجاء ، وساورنى الخوف من معقباته . أخذت أتصورها جالسة إلى جانبى تميل نحوى ، وتنصت لحديثى . وربما مست يدها يدى ، أو قربت أنفاسها من وجهى . ولكننى تذكرت عهدى مع الشيخ منصور ، فاستغفرت ربى من وسوسة الشيطان ، واستعذت بالله من الوقوع فيما يغضبه .

« وتوالت جلساتها معى ، فكنت أراها ترد براحتها خصلة شعرها ، وتشد طرف جلبابها ليستر ركبتها ، فإذا طالت المدة استرخت فى جلستها ، وتمطت وتثاءبت ، فتتزاحم الأخيلة فى فؤادى ، فأنهى الجلسة ، وأتطفل على النوم لأن النوم لم يطلبنى .

« واشتد الصراع فى نفسى يوماً ، فأغلظت لها فى القول ، فتركتنى غاضبة وخاصمتنى ، فسعيت لمصالحتها ، ودسست فى جيبها ورقة عليها هذان البيتان :

أنت الثريا عز من سماك — وأنا الثرى أرجو هطول سماك
جودى على بقطرة أبقى بهـــا — حيًّا وإلا مت قبل لقاك

« وأعتقد أن ثريا لم تفهم هذا الشعر لأنها لم تستجب له » .

ولم يضق الأستاذ بصراحة الفتى ، بل حمل هذه الصراحة على أنه أصبح يثق به ، فيعترف له كما يعترف بين يدى شيخه « منصور أبو هيكل » .

قال الأستاذ هاشم : « هل تعتقد أن ثريا بادلتك حبًّا بحب ؟ »
قال الفتى : « يبدو لى أنها لم تر حبى لأنه بقى فى أعماقى » .

قال الأستاذ : « إن كبت الحب هو الذى جعلك تعبر عنه بالإغلاظ لها فى القول » . قال الفتى : « هو ذلك » . واغرورقت عيناه بالدموع . فربت الأستاذ على كتفه وقال : «أنا أهنئك يا بنىّ بنفسك . لا تضعف ، واسعد بصمودك للإغراء ، وبانتصارك على نداء الجنس . وعليك بالعبادة والرياضة فهما سياجك من السقوط » .

ومنذ هذا اليوم والفتى مكبّ على الصلوات والتسبيح. يصحو مع الفجر فيغتسل ويتوضأ بالماء البارد فى الشتاء القارس . ويصلى الظهر فى المدرسة وسط التلاميذ على أرض الحديقة . ويقضى الوقت بين المغرب والعشاء فيما يسمونه صلاة الغفلة . وفيما بين الصلوات يذكر الله على مسبحة اشتراها ، وأصبح حريصاً عليها حرصه على أدواته المدرسية وكلما جاء يوم الخميس قضى عصره فى زيارة الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة ، ومساءه فى الذكر بحضرة الشيخ الدرديرى ، وكانت مجالا لجمهور كبير من المجاذيب .

كان عهده مع الشيخ منصور أن يكرر على مسبحته « لا إله إلا الله » ، ويستمر على ذلك حتى يرى فى منامه حلماً يقصّه على أحد المأذونين بتفسير الأحلام من قبل الشيخ ، فإذا وجد فى الحلم ما يبشر بروحانية متقدمة نقل الفتى إلى « الله » ومن أحلامه ينقله إلى « هو »

ثم إلى « حى » ، وهكذا حتى يصل إلى « قهار » ، فهذه المرتبة التى يصح له فيها أن « يسلك العهود » أى يعطيها . وكان الفتى يرنو لهذه المرتبة الكبيرة ، ولذلك كان فمه لا يقف عن ترديد اسم الجلالة .

وكان كلما سافر إلى الشرقية فى إجازة الصيف حرص على زيارة الشيخ منصور ، فكان يركب دابة إلى « أبو كبير » يتركها فى وكالة للحمير ، ثم يستقل القطار إلى السنبلاوين حيث يركب قطار الدلتا إلى أبى حريز ، وهى بلدة الشيخ ، ثم يعود بنفس الطريقة إلى قريته فى المساء .

وفى إحدى الليالى الظلماء عاد من زيارته ، فركب حماره ، وسار وسط المزارع دون أن يرى طريقه ، فإذا الحمار يدخل فى ترعة مستعرضة فيغوص فيها ، والفتى من فوقه يغالب الموج ويصرخ فى طلب النجدة حتى أسعفه فلاح قريب منه .

واعتلى الفتى ظهر حماره والماء ينضح منهما حتى بلغ بحر فاقوس ، وكان عليه أن يعبره ، فى مركب ذى سلسلة تشد فتدفع المركب نحو البر الآخر . ولكن المركب أبى مغادرة الشاطئ ، فظن الفتى أن المركب مغروز فى الطمى ، وذكر شيخه ، واستغاث ببركاته ، وكرر أدعية خاصة أوصاه بها حين تواجهه مثل هذه الصعوبة . ولكن المركب لم يتحرك لأدعيته ، ولا لان لكرامات الشيخ منصور . ونظر الفتى فى جانب المركب فوجد قفلا كبيراً يربطه بعمود على الشاطئ ، ورأى أن الأدعية لا تفل الحديد فلا بد من فتح القفل بمعرفة « المراكبى » . ووصل الفتى إلى منزله بعد منتصف الليل ، وهو سعيد بالمتاعب التى لاقاها لأنها تضاعف ثوابه ، وتقربه إلى قلب شيخه ، وتطلق النور الذى يشع فى خياله من أستار الكعبة ، وتستدرج الطائر الأخضر الذى يراه فى أحلامه يرفرف فى السماء .

وألف الفتى مع أبناء عمومته فى كفر عيسى فريقاً للعب الكرة ، فكان أبوه يغضب كلما رآه يكشف ما فوق ركبته ، وينهاه عن ذلك لأنه ينافى الكرامة . كما كان ينهاه عن السباحة فى بحر فاقوس ، ويرسم

على فخذه بالحبر علامة يحذره من أن تزول ، فيكون زوالها دليلا على أنه نزل إلى الماء .

ولكن هذا التضييق فى القرية لم يستمر فى القاهرة . فقد انشغل الوالد بدروسه فى الأزهر ، وانتهز الفتى هذه الفرصة فألف مع أقرانه فى الكحكيين نادى السباع المفترسة . واتخذوا من أرض جلال بالدراسة ساحة للعب .

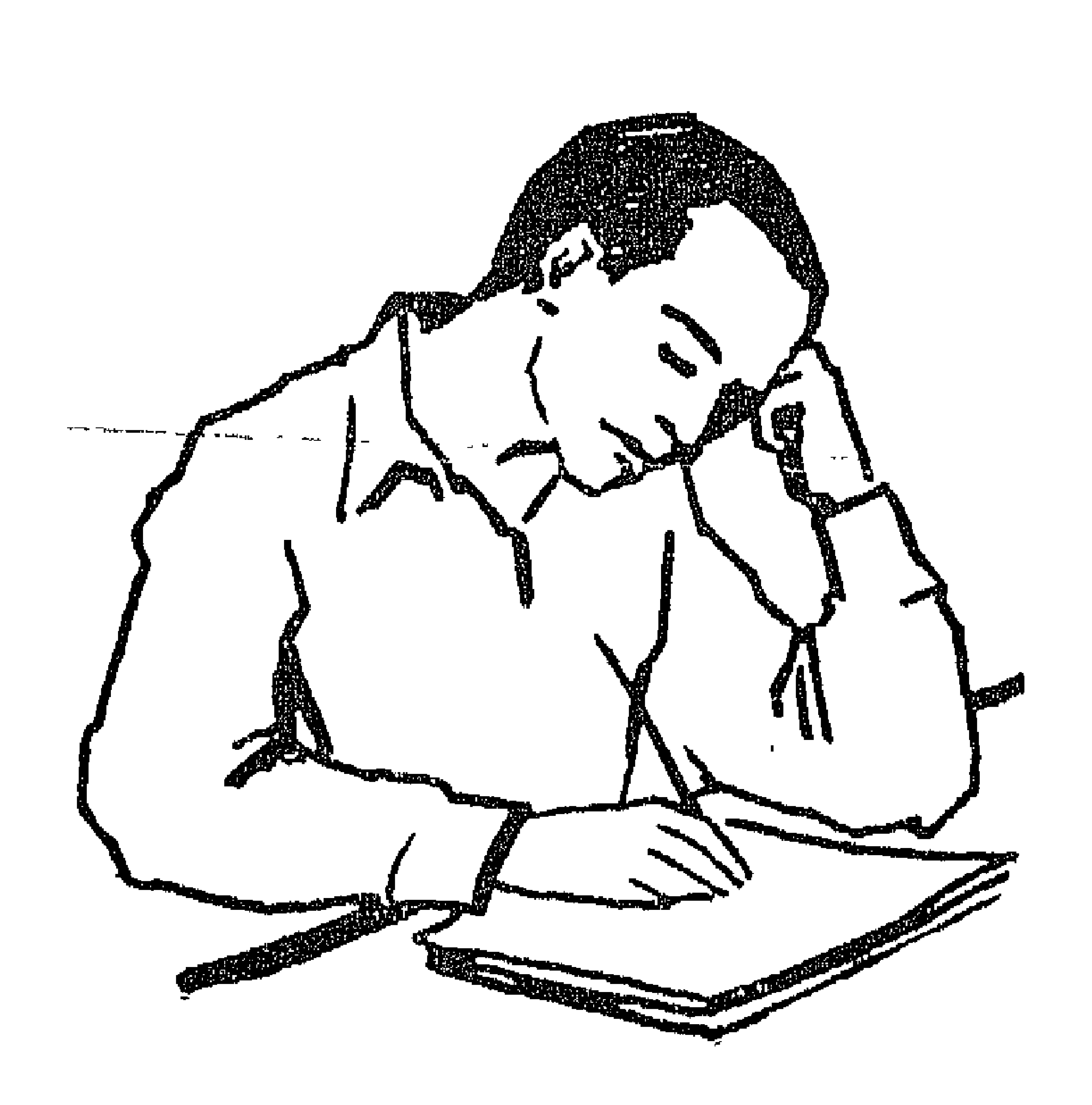
ومن الناحية الأخرى ألف عدد من أولاد البلد نادياً آخر باسم نادى العباسية ، وقامت بين الناديين منافسة شديدة كانت تؤدى دائماً بعد كل مباراة إلى التضارب وتمزيق الثياب والتقاذف بالأحجار . وكان الفتى معروفاً بسرعة العدو ، فوقع عليه الاختيار ليكون هجوماً أيمن ، ولكنه كان يستحوذ على الكرة فيجرى بها دون أن يشرك معه أحداً حتى يقذفها خارج الهدف . ويتكرر هذا فى كل مرة حتى يجد إخوانه من الخير أن يجعلوه أميناً عاماً للنادى يتوفر على الأعمال الإدارية ، وحراسة الملابس ، فيرى الفتى فى هذا ما يجنبه شر أولاد البلد إذا لعب ، ويرضى به . ولم يمارس الفتى رياضة الكرة منذ ذلك الحين ، وإن كان قد بقى يحب التفرج عليها . ويتحمس لفريق الخديوية كلما لعب أمام فريق التوفيقية أو السعيدية .

ثم تحول إلى رفع الأثقال ، فانتسب لناد فى السيدة زينب ، وكان المشتركون فيه من التلاميذ والعمال ، والاشتراك قروشاً زهيدة ، فكث يبنى جسمه حتى تمكن من رفع خمسين كيلو ، ومن زيادة وزنه إلى خمسين كيلو أيضاً .

وبين الذكر والرياضة انصرف الفتى عن الحب وعن الدراسة . فتأجل نجاحه إلى سبتمبر ، ليتقدم للمحلق فى اللغة الإنجليزية . كان رسوبه فى هذه اللغة أول رسوب صادفه فى حياته الدراسية ، وآخر رسوب أيضاً .



١٩٢٥ -



بدأ الفتى يكبر فيصبح شاباً بادى الرجولة . لم يكن يود أن يختار القسم العلمى فى دراسته الثانوية لولا أن أباه أصر على ذلك بعد أن علم أن السوق امتلأت بالحقوقيين وخريجى الآداب . فلما نجح فى البكالوريا وجد أن مجموع درجاته لا يستطيع أن يدنيه من الطب أو الهندسة ، فاتجه إلى مدرسة المعلمين . وشجعه أبوه على هذا الاتجاه بترديد قول شوقى :

قم للمعلم وفّه التبجيــلا كاد المعلم أن يكون رسولا

ويوم الكشف الطبى رافقه ريفى من أقربائه إلى المدرسة ، وكانت فى المبنى الحالى لمعهد التربية بالقصر العينى ، فلما أعلنت النتيجة ظهر أن الشاب راسب فى النظر ، فغضب الريفى لذلك غضباً شديداً — وبخاصة أن الطبيب أعور — فدخل عليه دون استئذان، وساءله مساءلة شديدة : « لماذا أسقطت قريبى فى النظر وهو لن يحارب ؟ كل ذى عاهة جبّار ! » ، فجرى الطبيب وراءه ، وتماسكا لولا أن ناظر المدرسة تدخّل فى الأمر وباعد بينهما .

وانصرف الشاب من مدرسة المعلمين إلى مدرسة التجارة العليا ، فلما ذهب للكشف الطبى وجد الطبيب الذى كان فى مدرسة المعلمين قد انتهى من مهمته هناك ، وجاء إلى مدرسة التجارة فتوقّع منه شراً . واتجه إلى الله فصلى ركعتين على أرض الحديقة . وفيما هو يركع ويسجد شاهده معاون المدرسة — وكان متديناً — فأثنى على استقامته واصطحبه إلى مكتبه ، وهناك قص عليه الشاب قصة قريبه مع الطبيب ، فطمأنه المعاون ، ووعده بأن يتولى بنفسه تغطيه عينه فى أثناء الكشف ، وبأن « يؤشر » على ظهره بما يرشده لفتحات العلامات . ولم يشك الطبيب فى أمانة المعاون ، وإنما شك فى أن النظارة مقعرة أكثر من اللازم . فلما

فحصها وجدها قانونية ، ففهم أن الطالب استبدل بنظارته الأولى نظارة جديدة . وهكذا دخل الشاب مدرسة التجارة العليا بطريق الغش ، وشكر للمعاون جميله ، وإن كان قد عجب لموقفه المتناقض ، فهو متدين يحب في الشاب تمسكه بالدين ، ولكنه لا يرى في مساعدته على الغش ما يخالف هذا الدين !

على أن هذا العجب يسير إذا قيس بالعجب الأكبر . فكيف تفرض قوانين التعليم على شاب يحب الطب أو الهندسة أن يتقدم للاشتغال بالتعليم ، فإذا لم ينجح كان عليه أن يصبح من التجاريين ؟ وهل هناك ملكات إنسانية صالحة لكل نوع من أنواع الدراسة والممارسة ؟ أليس في هذا إهدار لما يستفيده المجتمع من الاستعدادات الطبيعية لبنيه ، وإرهاق للناس بتكليفهم مالا يطيقون ؟ .. وبدأ الشاب يفكر !

وانتظم في الدراسة بمدرسة التجارة العليا . وبعد بدايتها بقليل جاءه نبأ فاجع هو أن امرأة عمه توفيت في الزقازيق ، وكان عمه قد تزوج عليها فتاة صغيرة ، فمكثت الأولى تعاني من ذلك حتى ألح عليها الداء ، ونقلها الزوج من القرية إلى حيث تسكن الثانية ، فأشقاها هذا مرة أخرى ، وماتت بالسكتة القلبية .

لو فقد الشاب بصره لقنع بالسمع عن البصر ، ولكنه فقد صوت هذه السيدة وابتسامتها إلى الأبد ، فود بعد فقدانها لو استغنى عن سمعه وبصره جميعاً . ولقد كان قلبه يخفق بحبها على الدوام ، فخيل إليه بعدها أن هذا القلب لن يخفق بحب أحد . إن ذاكرته تمتلئ بصورها وهي تحنو عليه ، فتنقله من حجرها إلى فراشه ، وتحيطه بعطف الأم ورعاية المعلم . ثم تفيض الذاكرة بالصور فتفيض العين بالدموع .

وعلم أنهم نقلوها إلى القرية ، فلحق بها هناك ، ولكنه بدل أن يجد مأتماً وجد ثورة عارمة . إن والده وأعمامه مجتمعون لتبادل الرأي فيما حدث من تعرض أهل المرحومة لنعشها في الطريق الزراعي أمام قريتهم ،

وإصرارهم على أن تدفن فى مدافنهم ، ما دامت لم ترزق من زوجها بخلف يسوّغ دفنها فى بلده مع أهله . ووالد الشاب ثائر معهم ، لأن أخاه وافق على ذلك حقناً للدماء .

ويل للموتى من الأحياء ! .. إن الأحياء مشغولون عن مصابهم فى فقيدتهم بوضع كراماتهم فوق أيديهم والسير بها وسط الناس . وقد خيل إليهم أن كراماتهم وقعت فى الدنس ، فانكفئوا ليلتقطوها ، فتصادمت رؤوسهم وفقدوا هداهم .. وبدأ الشاب فى حزنه يفكر !

ثم أفرغ حزنه الكبير فى كتابة المذكرات التى كان يمليها عليه أستاذه فى الاقتصاد ، فإذا امتحنه توقّع منه أن يعيد فى إجابته ما أملاه عليه بالحرف . وفى أحد الأيام ساءله عن معنى « ارتفاع الثمن سبب فى الربح لا نتيجةَ له » فصحح الطالب الجملة قائلا : « نعم ارتفاع الثمن سبب فى الربح لا نتيجةٌ له » وبدأ يجيب ، لولا أن الأستاذ استوقفه وقال : « أنت لا تفهم شيئاً فى النحو » ألا تدرى أن « لا » نافية للجنس ، فما بعدها يكون مبنياً فى محل نصب ؟ فاستأذن الشاب فى أن يقول إن « لا » هنا حرف عطف . فسخر الأستاذ من جهل الشاب ، وشاركه الطلاب فى سخريته . وفى اليوم التالى جاء الشاب ومعه كتاب « الأشمونى فى النحو » ، فالتف حوله جمهور من زملائه واقتنعوا برأيه . ولما جاءت المحاضرة التالية رفع أحد الخبثاء منهم أصبعه وقال : « يظهر يا دكتور أننا بلداء فى النحو ، فقد ثبت أن (لا) حرف عطف فعلا » وطلب من الشاب أن يقدم المرجع الذى معه ، فأسرها له الأستاذ فى نفسه .

وجاء الامتحان الشفوى فى آخر العام فسأله الأستاذ : « آدم سميث ولد سنة كم ؟ » فلما عجز عن الإجابة سأله : « طيب مات سنة كم ؟ » وأعطاه صفراً لولا أن الشاب انحنى للعاصفة واسترضى الأستاذ ، فرفع الدرجة من صفر إلى ثلاثين .

وقام الشاب من مكانه بعد أن فقد ثقته بالأستاذ ، كما فقد ثقته

بالزمان . لقد سرق الزمان منه امرأة عمه ، وها هو ذا أستاذه يسرق منه نجاحه . لماذا ؟ ألأنه سمح لنفسه على استحياء بأن يناقش الأستاذ مناقشة علمية جادة ؟ وهل التعليم إلا تفاعل بين المعلم والتلميذ ؟ وكيف يسمح الأستاذ لنفسه بأن يظلم وهو فى كرسى القضاء ؟ أسئلة نقرت رأس الشاب وهو على أبواب الحياة ، وأوشكت أن تفقده ثقته بمستقبله .

لقد ذكر أن هذا الأستاذ تغيب يوماً لمرضه ، فحل محله أستاذ مغرم بالإملاء هو الآخر ولاحظ الطلاب أنه يملى عليهم كلاماً سبق أن كتبوه ، فلما لفتوا نظره لذلك تبينوا أن الأستاذين معذوران فقد نقلا عن أصل إنجليزى واحد ! وبينما هما مشغولان فى الإملاء كان حسن كامل الشيشينى أستاذ الجغرافيا الاقتصادية يفرغ رصاصه فى صدور الإنجليز مع شركائه ماهر والنقراشى والحاج أحمد جاد الله ، ثم يجىء إلى الفصل فى الصباح كأن شيئاً لم يحدث ، فيتكلم فى السياسة حتى إذا دخل عليه حمدى بك ناظر المدرسة — وكثيراً ما كان يفعل — غير الشيشينى مجرى الحديث فقال : « وهكذا يا أبنائى ينقسم العالم إلى قارات ، وتنقسم القارات إلى دول » .

ومع ذلك كان الشاب يحب ناظره حمدى بك ، لأنه كان أديباً ، كان يضع فى وسط حديقة المدرسة لوحة عليها هذه العبارة : « قطف الزهور استئثار بالذات ممقوت » ، وكان يضع تحت كل زهرة ورقة عليها : « دعنى أعيش » . ولما ماتت أم مصطفى النحاس أرسل إليه برقية عزاء قال فيها : « لم تمت من أنجبتك » ، وعلق البرقية والرد فى فناء المدرسة .

على هذه الصورة سارت الحياة فى مدرسة التجارة العليا ، فكانت امتداداً للحياة فى المدرسة الخديوية . لم تكن حياة جامعية ، لأن جامعة القاهرة لم تكن قد جعلت المدرسة كلية من كلياتها . ولم تكن حياة

خلاقة ، لأنها خنقت روح البحث العلمى والمبادرة الفكرية . ولكنها علّمت الشاب أن البنوك ضرورية للادخار ، وأن الفائدة جزاء رأس المال ، كما أن الأجر جزاء العمل ، فوجد فى هذا النظر ما ينقض مبدأ يؤمن به ، هو مبدأ القرض الحسن ، ولذلك بدأ يفكر ...

وقد وجد المظاهرات تنصرف عن الاصطدام بالشرطة إلى أغراض أخرى ، كلبس القبعة بدل الطربوش وتكوين جامعة عربية ، فسار يوماً فى واحدة منها إلى بيت الأمة حيث خطب «سعد» ، فخالف المتظاهرين فى لبس القبعة ، ودعا إلى التمسك بالطربوش ، لأنه أصبح شعاراً قومياً .. واستطرد إلى الكلام عن الجامعة العربية فخالف فكرتها ، وقال : إن كل دولة فى العالم العربى مشدودة إلى مستعمر ، ولا يمكن أن تتم الوحدة بينها إلا إذا تخلصت كل منها من أغلالها . وقد هتف الشاب مع قرين ممن معه : « الاتحاد قوة » فرد سعد على الفور : « صفر + صفر = صفرا » .

لقد كان سعد فى نظر الشاب نبي الوطنية حتى هذا اليوم ، فأصبح زعيما تحتمل كلماته أن تناقش .

وتولى محمد محمود الوزارة فدعا إلى ردم البرك والمستنقعات ، وقال كلمته المشهورة : « أنا وحدى أقرر متى أسافر إلى لندن » ، يريد بذلك أن يتحدى الملك ، فقام توفيق دياب فى حفل كبير للوفد يندد بهذه الأقوال ، وكان الشاب حاضراً فأثر فيه الخطيب ببلاغته تأثيراً كبيراً فانتظم على الفور فى مظاهرة أحاطت ببيت محمد محمود بشارع الفلكى ، وقذفته بالطوب ، فأحاط بها رجال الشرطة وأصلوها سعيراً من الضرب بالعصى ، فعاد الشاب إلى بيته مثخناً بالجراح ، ممزق الثياب . ولما راجع نفسه بعد أيام وجد أن ردم البرك والمستنقعات عمل مستحب لا يستحق الرجم ، وأن تمسك رئيس الوزراء بحقه الدستورى اتجاه يستحق الإعجاب لا الثورة ، ففقد ثقته بالخطب الحماسية وبدأ يفكر ..

بقي الشاب على ولائه للأزهر ، وكان الإمام المراغى قد عين شيخاً له فى أواخر سنة ١٩٢٧ ، وأصبح هذا التعيين حدثاً كبيراً ، فلم تكن لحية الإمام طويلة بمقدار قبضة ، وإنما كانت مقصوصة لا تكاد تبرز من الذقن ، وكان لا يلبس « الفرجية » على عادة كبار العلماء ، وإنما يلبس « ككولة » . وكان نعله حذاء مفتوحاً برباط ، ولم يكن مركوباً أصيلا . وقد سمع الشاب أن أحد الشيوخ تحدث يوماً فى مثل هذا إلى صديق له فقال : « والله لقد سمعت ممن أثق بخبره والعهدة عليه .. » ثم انقطع عن الحديث وتلفت يميناً وشمالا ليستوثق من أن أحداً فى الخارج لا يسمعه ، وواصل حديثه بصوت خفيض : « سمعت أن الشيخ المراغى يمشط شعره ! » فصرخ الصديق : « يا شيخ ! قل كلاماً غير هذا » فأقسم الشيخ إنه لم يحرف فيما سمع ، وإن كان لا يقطع بصحته ! .

وزاد الطين بلة كما يقولون أن الإمام المراغى استهل عمله بإدخال الكهرباء فى الأزهر . وحرم النوم والطبخ فيه ، وفصل الأروقة من المسجد ، فسد أبوابها من الداخل ، وفتحها من الشارع ، ثم لم يكفه هذا فأدخل « النظام » فى الأزهر تمييزاً له عن « القسم العام » فأنشأ فصولا وضع فيها مقاعد خشبية للتلاميذ وطلب من الشيوخ أن يجلسوا على مرتفعات أمام المناضد ، فكان الكثيرون منهم يفضلون أن يخلعوا نعالهم ويتربعوا فوق المناضد .

وكانت التقاليد تقضى بأن تكون أول حصة فى الصباح للفقه ، فوضع الأستاذ المراغى جدولا للحصص يجعل الفقه فى بعض الأيام متأخراً عن النحو والحساب . ولم يعد فى وسع الشاب بسبب هذا النظام أن يحضر فى الصباح دروس « ابن عقيل » مع الأزهريين كما كان يفعل فى الماضى حين كانت الدراسة فى حلقات ، وكانت تبدأ فى الأزهر قبلها فى المدارس . وكان يواظب على الذهاب إلى الأزهر كل مساء ليستذكر دروسه على ضوء الكهرباء ، وينكفئ على الحصير كلما

أمعن فى البحث وهو يصور الميزانية العمومية لشركة مساهمة .

كان الشاب يرى ثورة المراغى على الجمود ، ويرى ثورة الجمود على الثورة ، فينحاز للإمام فى المناقشات التى كانت تحتدم فى كل ركن من أركان الأزهر. وكانت تمر أمام عينيه أحداث تحفر تأثيرها العميق فى فؤاده ، فيجد فى المراغى — مع كل ما عمله — طبيباً يعالج ، والأمر فى رأى الشاب قد يحتاج — أحياناً — إلى جراح يفتح البطون . لقد سمع أن ثلاثة من الطلاب الأزهريين كانوا يترددون يوماً على أحد محلات الفجور ، فيعقد أحدهم زواجه بإحداهن ، ويشهد زميليه على العقد ، حتى إذا قضى وطره انتقل الثلاثة إلى أخرى ، فيعقد الثانى زواجه بها ، ويصبح الأول والثالث شاهدين .. ثم يتزوج الثالث !

وسمع الشاب أن أحد الشيوخ يزكى عن ماله ، فيعطى أحد الفقراء الزكاة ، ثم يقول له الفقير : « وهبتك هذا المال » ، فيتقبله الشيخ ، ويكون بذلك قد أبرأ ذمته وأدى ما عليه من زكاة .

وعرف الشاب مما شاهده كيف يكون الانحراف المهنى فى خدمة الغرض الشخصى ، وكيف يصبح تطبيق النصوص احتيالا لا تفسيراً . خرج من مشاهداته بأن الدين تشريع سماوى لتحقيق الخير . ومادام كذلك فهو أهداف حية ، ولا يمكن أن يكون نصوصاً صماء ، هو روح لا إجراءات .. وبالرغم من أن رجال الدين هم رسل الفضيلة وملاذ الإنسانية فإن فيهم منحرفين .. ولذلك بدأ يفكر ..

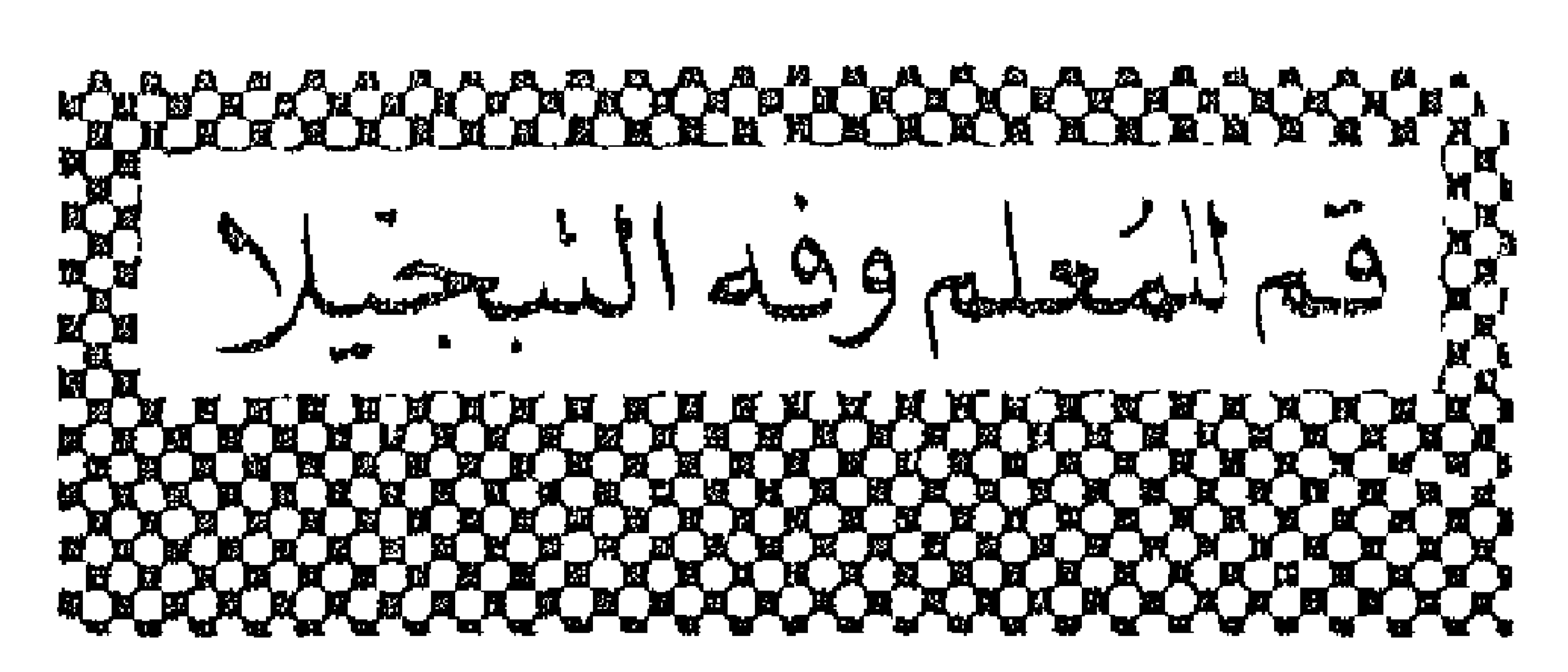
كان يقرأ الجرائد والمجلات ولا يثق فى الحزبية منها . لقد كانت خالية من الأخبار ومملوءة بالمبالغات. كانت إحداها تحتفظ بصورة لزعيم الطلبة يظهر فيها رأسه ملفوفاً بالشاش بسبب جرح أصابه فى إحدى المظاهرات ، وكانت الصحيفة تعيد نشر هذه الصورة كلما سارت مظاهرة جديدة مدعية أن الزعيم كان على رأسها واصطدم بالشرطة فجرح .

ويذكر الشاب أن أحد رؤساء الأحزاب أراد يوماً أن يسافر إلى طنطا في زيارة سياسية ، فتظاهر ألوف من العمال ليودعوه فى محطة القاهرة ، فتعرض لهم رجال الشرطة ، فقذفهم المتظاهرون بالطوب ، فأطلق رجال الشرطة عليهم الرصاص ، ومات عدد منهم ، فعدل الرئيس عن السفر ، ولكن جريدة الحزب لم تكن تعرف أنه تخلف ، فظهرت بعد الظهر تصف الحماس الذى قوبل به فى جميع المحطات ، والحفاوة التى استقبل بها فى طنطا.

وكما شاهد الانحراف فى بعض رجال الدين شاهده فى بعض رجال الصحف . كان أحد كبار الكتاب يعمل فى الصباح فى جريدة الأحرار الدستوريين وبعد الظهر فى جريدة الوفديين فكان فى الصباح يكتب مقالا فى السياسة يهاجم فيه الوفد ، وفى المساء يكتب مقالا فى البلاغ ، يرد به على هذا الهجوم ، ثم يتقاضى مرتباً من الجريدة الأولى ، ومرتباً من الجريدة الثانية !

لقد تعلم الشاب مما قرأه ورآه كيف يفرق بين الدين والمنحرفين من أهل الدين ، بين الوطنية وتجار الحزبية ، بدأ يخلى المبدأ من مسئولية التطبيق الخاطئ ، فلم يعد يندد بمبدأ لأن كثيراً من الآثام ترتكب باسمه ، ولم تعد الكلمة المطبوعة عنده مقدسة ، وإنما يجرى عليها من الأحكام ما يجرى على سائر الكلام .

تخلص من ترهاته الأولى .. وبدأ يفكر ..



١٩٢٩ -



الأسرة كلها فى فرح : نساء يزغردن ، ورجال يتبادلون التهنئة والقبلات ، وأطفال يرقصون فى ميدان القرية الكبير حول صفيحة ملئت « شربات » ، وقد وقف فلاح وسيم يسقى منها كل قادم . لقد جاء عامل البريد إلى القرية هذا الصباح بالجرائد، فإذا نتيجة دبلوم التجارة العليا منشورة فى الأهرام ، والشاب فى مقدمة الناجحين .. وبدأت الأفكار تتراقص فى ذهنه !

إنه أول شاب فى الأسرة يتخرج فى مدرسة عليا . وها هوذا على عتبة المستقبل السعيد، وليس بينه وبين أن يقبض خمسة عشر جنيهاً فى كل شهر إلا أن يجد عملا فى الحكومة أو إحدى الشركات ، وهذا يقتضى أن يسرع بالسفر إلى القاهرة ليسبق غيره فى البحث عن وظيفة . ولكن أليس من المناسب أن يبقى يوماً آخر لاستقبال المهنئين من القرى المجاورة ؟ ترى ماذا تقول عنه الآن فتيات الأسرة ؟ لقد سخرت منه إحداهن يوم أن دخل مدرسة التجارة فتساءلت : « ولماذا لا يفتح دكاناً من الآن ؟ »

ثم فكر فى مسكنه الحالى فى تحت الربع . إنه لم يعد صالحاً للعهد الحاضر . لم تعد كرامته تسمح له أن يدخل هذه الحارة المظلمة التى تسلمه إلى زقاق المسك . فيسير فى منعطف طويل مسدود حتى يوشك أن يصطدم بالحائط ، فيجد البيت إلى اليسار . ثم ما هذه السلالم العالية الملتوية ؟ إن الصعود فيها إلى الدور الخامس أمر عسير على الزملاء الذين قد يزورونه للتفاهم فى العمل أو السؤال عن الصحة أو التهنئة بالعيد . وأفاق من أحلامه على صوت أحد أعمامه يهنئه ويشد على يديه، فقبل يده ، وطلب منه الدعاء ، ثم أوى إلى حجرته ليستريح .

« رباه ! إن الدنيا لا تسعنى . كيف أنفق خمسة عشر جنيهاً كل

شهر ؟ لو انتقلت إلى أحسن شقة فلن تكلفنى أكثر من جنيهين ، ولو أفطرت كل يوم « بغاشة » وتغديت « كباباً » وتعشيت « فراخاً » فلن أنفق ثلاثة جنيهات . ولن تكلفنى ملابسى أكثر من جنيهين ، فأين يذهب الباقى ؟

لم ينم الشاب ليلته، ولم يطق الانتظار فى الصباح، فانطلق إلى المعهد الدينى بالزقازيق ، حيث كان يعمل والده وتزود منه بشىء من النقود ثم سافر إلى القاهرة .

كان — قبل تخرجه — كلما سار فى شارع قصر النيل أغمض حياء من بناء جبار على الطراز الإنجليزى يشغله البنك الأهلى ، ويقف أمامه أحد رجال الشرطة، فكان يسرع الخطى حتى لا يتهمه الجندى بالتلكؤ أمام البنك ، واليوم يريد أن يعمل فيه . ماذا لو ذهب إلى سكرتير المحافظ وعرض عليه نفسه ؟ ودخل فظل يسأل عن مكتب السكرتير حتى وجد نفسه أمام إنجليزى أحمر الوجه أزرق العينين . قال له فى إنجليزية مصرية : « سيدى ، أنا خريج مدرسة التجارة العليا وترتيبى السابع ، وأود أن أعمل فى هذا البنك إذا كان فيه وظيفة خالية » ، فنظر إليه الإنجليزى فى استعلاء وسأله : « هل أنت مصرى ؟» فقال : « نعم »، فعاد ببصره إلى ما كان بين يديه من أوراق وقال : « المصريون لا يسمح لهم بالعمل فى البنك الأهلى » .

وانصرف الشاب يجرر رجليه من التخاذل ، فهو يفهم أن يقول له السكرتير : « لا توجد وظائف خالية » ، أو أن يعقد امتحاناً يسقط المصريون فيه . أما أن يواجهه بأن البنك الأهلى المصرى لا يقبل المصريين فى وظائفه فهذا آخر ما توقعه .

وكانت التجربة قاسية ، فانصرف عن المؤسسات الأجنبية كلها إلى بنك مصر . كان عبا الله فكرى أباظة رئيس نادى التجارة مديراً عاماً لإحدى شركات البنك ، وكان هو الذى يرشح لوظائفه ، بتكليف

من « طلعت حرب » ، فتقدم الشاب إلى عبد الله أباظة فوضع اسمه فى كشف المرشحين . وخرج الكشف من مكتب طلعت حرب فإذا باسم الشاب قد شطب ، ووضع مكانه اسم أحد الزملاء المتأخرين عنه فى الترتيب .

وكبر على الشاب هذا النبذ فذهب يشكو إلى طلعت حرب .

دخل عليه فى شىء من الانفعال قائلا : « يا سعادة البيه ، ضعوا قواعد للقبول ولو فاسدة . قولوا إن الطويل قبل القصير ، والرفيع قبل السمين ،ولكن لا تأخذوا الناس هكذا دون ترتيب » فابتسم – رحمه الله – فى أستاذية ورزانة ، وكان يشبك يديه ويمدهما على مكتبه ، وقال : « اسمع يا شاطر .. لو كنت مكانى ، وكان عندك عميل أودع البنك مائة ألف جنية دون فوائد .. هل تعرف بهذه المناسبة معدل الفائدة فى حالة الإيداع ؟» قال : ٣ ٪ ، فقال طلعت حرب : « عظيم ! إذن هذا المودع ينزل للبنك كل عام عن كم ؟ » فأجاب : عن « ثلاثة آلاف جنيه » فاستمر الزعيم الاقتصادى : « والمودع لا يطلب الآن لقاء ذلك إلا أن أعين ابنه فى البنك، وهو زميلك ومتخرج معك فى نفس الدفعة ، لولا أنك حفظت أكثر منه ، فتفوقت عليه فى الامتحان ، وقد يكون فى الحقيقة أحسن منك » . واقتنع الشاب على مضض، وبدأ ينصرف ، لولا أن طلعت حرب فاجأه بقوله : « ولكنك ذكى تستحق أن تعين أيضاً » وأرسله إلى إدارة الحسابات .

لم يكن الشاب سعيداً بعمله فى بنك مصر ، فقد كان هذا العمل مقصوراً على جمع الأرقام طول النهار ، ولم تكن الآلات الحاسبة قد دخلت البنك . فما إن علم بعد شهر واحد أن وزارة المعارف تطلب مدرسين فى مدارس التجارة حتى تذكر قول أبيه :

قم للمعلم وفّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

وتقدم بطلبه ، فعين مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة بالظاهر .

شعر المدرس بصغر سنه من جديد ، فمن التلاميذ من كان يبلغ الثالثة والعشرين وهو لما يبلغ الحادية والعشرين ، حتى إن أباه اشترى باسمه نصف فدان، فأمضى العقد عنه بوصفه وليًا طبيعيًا لقاصر . لقد ودّ لو قفز بعمره فوق الأشهر القليلة التى تحجبه عن سن الرشد، ليقف على قدم المساواة مع زملائه المدرسين . إن أحدهم أرسل نكتة عنه قال فيها : إنه يأتى المدرسة على « مشاية »، فكانت خنجراً جرح كرامته ، ولذلك أسرف فى التظاهر بالتدخين ، وحرص على أن يركب الدرجة الأولى فى الترام ، واشترى لنفسه « منشة » طويلة ، ووضع فى الجيب الخارجى للجاكتة قلماً أحمر كان يدق به على المنضدة كلما دخل الفصل . وشعر بالرضى حين صحب المدرس الأول إلى محل « جروبى » فلما رآه يطلب « ويسكى » طلب مثله ، وتحامل على نفسه ، فذاق الخمر ليفعل فعل الرجال !

ولم يقتصر أمر مركب النقص على هذا ، بل تعداه، فخلق فى سلوك صاحبنا صرامة وشدة . سمع مرة من أحد زملائه المدرسين أنه يعالج عند طبيب قريب من المدرسة، وأن الطبيب أعطاه حقنة فى غير موضعها وأحدثت عنده خراجاً ، قال لزميله : « ولماذا تستمر فى العلاج عند هذا الطبيب ؟» قال : إنى أريد استرداد ما بقى من حقن لولا أنى مكسوف، فعرض صاحبنا عليه خدماته فى الحال، وذهب معه إلى عيادة الطبيب. وهناك بقى الزميل فى غرفة الاستقبال ودخل صاحبنا إلى غرفة الكشف. قال للطبيب : إن زميله موجود فى العيادة ، وهو لا يريد الاستمرار فى العلاج ، وقد كلفه أن يتسلم عنه باقى الحقن ، فغضب الطبيب وأمر صاحبنا بالانصراف ، فلما لم يخرج أمر « التمرجى » بإخراجه . وما إن مد التمرجى يده ليشده حتى أهوى صاحبنا بكفه على وجه الطبيب! وتماسك الاثنان ، فزلت قدم الطبيب ووقع على الأرض، ووقع صاحبنا فوقه ، ومن فوقهما أدوات العلاج من سماعة وقطن وحقن وسوائل .

ودخل المرضى على طبيبهم فوجدوه على هذا الحال فخرجوا من العيادة مذعورين !

لقد كان صاحبنا مدرساً ، ولكنه كان فى سن المراهقة الفكرية .

وفيما هو يصلح من النقص الذى يحسّه دخل عليه يوماً فى غرفة المدرسين أحد السعاة وفى يده ظرف ، وعلى فمه ابتسامة . فلما قرأ الظرف عرف أنه من أبيه ، ووجد العنوان هكذا : « مدرسة التجارة الدنيا بالظاهر — إلى فلان المعلم بالمدرسة » وفهم لماذا يبتسم الساعى . إن أباه كتب الاسم غير مسبوق « بالأستاذ » ولا متبوع بلقب « أفندى » لأنه يرى أن الأبوة تقتضى تجريد الأبناء من ألقابهم عند مناداتهم ولو بالكتابة . وقد استخدم كلمة « معلم » اقتداء بشوقى ، واستخدم كلمة « الدنيا » لأن ولده تخرج فى المدرسة العليا .. وتصور أن زملاءه جميعاً يسخرون منه ، فطلب إلى خاله أن يتوسط عند أبيه ليفهمه أن ابنه أصبح ذا حيثية تقتضى أن يعامل بشىء من التقدير ، فسعد الوالد بذلك ونزل عند مواصفات وضعها الخال .

وسار كل شىء على مايرام ، فقد جاءه بعد ذلك خطاب من أبيه معنون طبق المواصفات ، ولكن الرسالة التى بداخله تقول إن أحد الموظفين فى أسرة منافسة بالقرية يريد شراء « الدوار » الذى يملكه عمه ، وهو واقع وسط بيوت الأسرة ، ويطلب من ولده أن يبيع « زر طربوشه » إن اقتضى الأمر ، ليحضر ومعه مائة وسبعون جنيهاً هى ثمن الدوار . وكان الابن قد جمع هذا المبلغ من الدروس الخصوصية والتدريس فى الأقسام الليلية . فسافر إلى كفر عيسى ، ووقع مع أبيه على عقد الشراء فى الشهر العقارى وسط أقربائه . لقد شعر لأول مرة أنه أصبح رجلا .

وعاد إلى القاهرة فرأى أن مسكنه لم يعد يليق بمركزه ، وصمم على أن ينتقل منه إلى الظاهر . وفيما هو يفكر فى ذلك زارته صاحبة البيت مهنئة بالوظيفة ، وعرضت عليه أن تطبخ له غداءه كل يوم ، فلما تأبّى ألحت

عليه فى ذلك ، وقالت : إن العشرة الطويلة جعلت منه ابناً لها ، فلا بد أن تقوم نحوه بواجب الأم . وصار يعطيها خمسة قروش كل صباح ، فيجد فى الظهر أرزاً وخضاراً ولحماً وفاكهة . وطغى عنده حسن المعاملة على سوء المسكن فأجل مشروع الانتقال .

وذات يوم جاءته صاحبة البيت تطلب خدمة . إن ابنتها تريد فتح حساب جار فى بنك مصر ، وهى ترجو منه أن يساعدها فى ذلك ، لأنها تجهل الإجراءات المصرفية . فرحب بما تريد ، واتفقا على أن يصحب ابنتها إلى البنك فى اليوم التالى . ولكن الأم استدركت قائلة : « أليس من الأفضل أن أعرفك بها الآن ، إذا لم يكن عندك مايشغلك ؟ » ؛ فلم يمانع المدرس فى ذلك ، وامتدت يده فى حركة تلقائية إلى ذقنه وربطة عنقه تتحسسهما لتطمئن على أنهما فى أحسن حال .

وجاءت فتاة بدا أنها تزينت للمناسبة ، وأعلن عن مقدمها عطر زكى كان يخطو قبل خطاها فجلست ساقاً على ساق ، وتحدثت فى طلاقة تشهد لها بالخبرة والتجربة .

وفى الصباح ذهب معها إلى البنك فوجدها تجيد الكتابة وتجيد التصرف ، بل وجدها تملأ قسيمة الإيداع وحدها ، وتكتب فى خانة صاحب الحساب اسم المدرس فلما لفت نظرها إلى أن صاحب الحساب هو صاحب النقود قالت فى تخابث : « نعم هو أنت » . ورأت فى وجهه حيرة فواصلت كلامها : « إننى أريد الحساب باسمك ليسهل علىّ أن أسحب وأن أودع عن طريقك دون أن أضطر للحضور بنفسى » ووقع الأستاذ فى المصيدة !

أصبح الحساب الجارى مسوغاً لاتصال الفتاة بالمدرس فى كل يوم ، كانت تسحب ثم تودع ماسحبته ، وتودع ثم تسحب ما أودعته ، حتى عرف المدرس غرضها . إنها سيدة مطلقة تبحث عن زوج وأسرع بالانتقال إلى الظاهر ، ففهمت من الانتقال كل شىء وطلبت إقفال الحساب الجارى .

كان المسكن الجديد قريباً من المدرسة فأصبح ملتقى معظم الزملاء ،

يستريحون فيه بين الحصص ، وينامون إذا شاءوا وكان مدرسو التجارة بالإسكندرية والمنصورة وأسيوط إذا انتدبوا للقاهرة فى الامتحانات يتخذون من هذا المسكن مقرًّا لهم ومنتدى . كان الجميع ينامون بعد الغداء ثلاث ساعات ، ثم يسعون بين المقاهى ، فيلعبون النرد ، ويتحدثون فى العلاوات. وكان قد استقر فى ذهن مدرسنا أن من سمات الموظفين أن يجلسوا فى المقاهى بعد ساعات العمل فيمسحوا أحذيتهم ، ويشتروا ماطاب لهم من الملابس الصغيرة والكتب والفاكهة . وكان يرى أن المقاهى هى ملتقى المستقيمين من المدرسين ، فإن أحد زملائه كان يبدأ سهرته فى «جروبى» ، فيتناول فيه قدحين من الويسكى ، ثم يقصد حانة فى عماد الدين ، فيشرب زجاجة من النبيذ أو البيرة ، وينتهى آخر الليل إلى خمارة بشارع محمد على ، فيجرع من المشروبات الكحولية ما شاء الساقى أن يقدم ، مادام لم يعد يستطيع التمييز بينها .

كان صاحبنا يرى فى سير هذا الزميل عزاء له عن وقته الذى يضيعه فى المقاهى ، ولكنه استيقظ يوماً فوجد حياته مع ذلك فارغة ، فقرر أن يملأها بالزواج .

وكان قد رآها فى سيارة أبيها ، فتاة صغيرة فى الثانية عشرة ، نجحت فى الشهادة الابتدائية وهى تتأهب لدخول الأميرة فايزة الثانوية . كان هذا أول لقاء له معها ، وبقى آخر لقاء حتى سمح [illegible] أن يراها بعد خمس سنوات فى ليلة الزفاف ! لقد قدم خاتم الخ[illegible] لأبيها — وكان طبيباً — لأنه لم يسمح بتقديمه للخطيبة ، وقدم الشبكة للطبيب لأن التقاليد لا تسمح بالسلام وتبادل النظرات قبل كتب الكتاب ، وكتب الكتاب لا يصح أن يسبق الحصول على شهادة الكفاءة .

ومن الغريب أن صاحبنا لم يثر لهذه المعاملة ، فقد أقدم على الزواج من فتاته لسبب واحد هو أن أباها أعجبه ! راقته استقامته وأحب فيه تزمته ، فاستبشر خيراً بسلوك ابنته. وتمر أكثر من ثلاثين عاماً على هذا الزواج

الذى لم يجئ فى إثر عاصفة من الحب ، فيتطلع إليه كل عام منها ليعرف معنى الخلود .

اتحد الكيانان فأصبحا كياناً واحداً فى شخصين ، واستحالت عيوب كل منهما بفعل الحب الصحيح إلى توابل فى حياتهما الزوجية تزكى طعمها وتخلصها من الرتابة . وتدافعت الأيام ، فخرج من موكبها خلف صالح نشأ فى رعاية أبوين وحنان أمّين . ترى أكان هذا بمحض المصادفة أم كان بفعل التوافق الموضوعى ؟ إن صاحبنا لا يدرى ، ولكنه يعرف أن زواجه كان أكبر توفيق فى حياته .

وبعد الزواج بقليل جاءه تكليف من مراقب التعلم التجارى فى أثناء الإجازة الصيفية بفحص كتب فى الحساب التجارى لاختيار أصلحها لمدارس التجارة ، وكان صاحبنا يعتزم السفر مع زوجته فى قطار البحر إلى الإسكندرية ، فأخذ معه النسخ فى ظرف كبير كان قد جاءه من صديق فى النيابة العامة . ولما وصل القطار إلى الإسكندرية ظهر أن قطارين اثنين قد وصلا قبله ، فماجت المدينة بالمصيفين ، وتعذر على كثير منهم أن يجد لنفسه سريراً فى فندق أو « بنسيون » .

وتعب صاحبنا وزوجته فى البحث واللف والاستفسار حتى وجدا « بنسيوناً » يقف أمامه صف طويل من الناس فى انتظار معلومات عن غرفة خالية ، فوقفا فى آخر الصف ، وإذا بصاحب « البنسيون » ينتقى المدرس بالذات ويدعوه للتقدم ، ثم يؤثره بالغرفة . لم يعرف صاحبنا سبباً لهذه المجاملة حتى فاتحه الرجل وهو يودعه فى قضية أحيل من أجلها للنيابة ، وطلب وساطته ، ففهم أنه لمح الظرف الذى فى يده ، وقرأ العنوان الذى عليه « النيابة العامة » فاعتقد أن صاحبه من وكلاء النيابة .

هكذا هيأت الفرصة له هذا « البنسيون » وهيأت له التعرف بمراقب التعليم التجارى ، فقد كان ينزل مع أسرته فى البنسيون نفسه . وقد سأله عما تم فى فحص الكتب فقال : « إنهما اثنان ، أحدهما لأستاذ الحساب

التجارى بمدرسة التجارة العليا ، والآخر لمدرس فى التجارة المتوسطة » ؛ فعلق المراقب قائلا : « لا بد أن يكون كتاب أستاذ التجارة العليا أحسن » ولم يكن يدرى أن مؤلف الكتاب الثانى هو أحد أقرباء المراقب ، ووجد الفاحص أن كتاب الأستاذ يعلو على أفهام التلاميذ ، فاستبعده مخلصاً وزكى الكتاب الثانى .

قامت الدنيا ولم تقعد ، فقدم الأستاذ شكوى لعلى زكى العرابى وزير المعارف بدت وجيهة، لأنه اتهم المراقب بالتأثير فى حيدة الفاحص لمصلحة قريبه، فبدا الحرج واضحاً فى موقف المراقب ، ولكن الفاحص فنّد الشكوى فى منطق وقانون ، فاقتنع الوزير بهما وأقر الكتاب وحفظ الشكوى .

ونشأت بين صاحبنا والمراقب بسبب ذلك صلة تقدير متبادل جعلته يختاره فى بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٣٧ . ما أعجب الظروف !



- ١٩٣٧ -



مدارس التجارة فى شغل شاغل . المدرسون يتهامسون وقد بدا الاهتمام على وجوههم . والأجراس تدق فلا يكادون يسمعون لأنهم لا ينصتون . فإذا سمعوا انصرف كل منهم إلى فصله فى تثاقل وشرود ، وكثر ترددهم على من فى عهدته ملفاتهم ليستوثقوا من تواريخ حصولهم على مؤهلاتهم ودخولهم الخدمة ، وترقيتهم للدرجات التى هم فيها .

لقد جاءت الأخبار بأن الوزارة قررت إيفاد أربعة منهم فى بعثة إلى إنجلترا ، اثنان لدراسة المحاسبة ، والثالث لدراسة الإعلان ، والرابع لدراسة أساليب البيع . واختلفت المعلومات عن أساس الاختيار : أهو المؤهل أم هو الأقدمية ، وهل السن مهمة فى الحالتين ؟ وإذا تعارض الترتيب عند التخرج مع الأقدمية فأيهما يرجح الآخر ؟ وهل يكون الاختيار للمحاسبة من بين مدرسيها والاختيار للموضوعين الآخرين كذلك ؟

أسئلة كانت تجمع بين كل اثنين أو ثلاثة فى ركن من الأركان ، ليناقشوا الإجابة عنها ، ويستعدوا للرد على من يعارضها ، فإذا عاد كل منهم إلى منزله بدأ يفكر فى استغلال إمكانياته ، ومنها عمته التى تعرف حرم الوزير ، وصديقه الذى هو محسوب على كبير الأمناء ، وبدأ يستعرض إمكانيات الزملاء ليوازن بين فرصته وفرصتهم فى الفوز .

كان كل منهم يبنى حكمه على مكانة الواسطة التى لديه ، ومدى اهتمامها بأمره ، لأنها هى التى سترفع مؤهلاته لتظهر على مؤهلات الآخرين. واشتدت المعركة ، وتقاذف المتصارعون بالاتهامات ، ثم قذفوا بها فى وجوه الرؤساء حتى أسفرت المعركة عن انتصار ثلاثة كان منهم صاحبنا . أما الرابع فقد تأجل اختياره حقناً للدماء !

وتأخر سفر الثلاثة لطول الإجراءات ، فرأت إدارة مدرسة التجارة

بالظاهر — ومنها الفائزون الثلاثة أن تعهد لهم فى تدريس مواد إضافية إلى أن يسافروا، فكانت الجغرافيا من نصيب صاحبنا . ولم يكن يعرف إن كانت تنجانيقا قريبة من ممر سمبلون ؟ أم هما فى قارتين مختلفتين؟ ولكنه قبل المهمة ، فكان يمعن فى التركيز على موضوع الدرس لكى لا يستطرد طالب فيسأله فى موضوع متصل. ولذلك كان يرسم الخريطة على السبورة قبل أن يدخل الفصل ، وينسخ منها صوراً يوزعها على الطلاب لكى لا يتطلعوا إلى سواها . وكان شديد الحرص على النظام لكى لا تطير المعلومات من رأسه . كان يحفظ الدرس فينقله إلى الطلاب ، وكان يعجب إذا فهموه لأنه لم يفهمه . وزاره أحد المفتشين الكبار مرة فأعجب بأسلوبه فى الشرح ، وعنايته بوسائل الإيضاح ، فكتب فى تقريره أن له مستقبلا عظيما فى عالم الجغرافيا !

وسافر صاحبنا مع زميليه بعد انتهاء الإجراءات ، وترك امرأته حاملا إلى ما بعد الميلاد . وعز عليهم أن يمروا بالقطار على باريس ثم لا يمكثوا فيها يومين ، فنزلوا ، وكانت فرنسيتهم جميعاً عرجاء، وكان جهلهم بادياً فى تصرفاتهم ، لأن هذه كانت سفرتهم الأولى خارج الديار .

كانوا يرون الرجل يحيط رفيقته بذراعيه ويقبلها فى الطريق العام ، فيجدون فى هذا فجوراً كبيراً . وكانوا يرون المطاعم لا تقدم الماء مع الطعام ، فلا يفهمون لهذا الإحجام سبباً . وكانوا يرون أفواج الناس تنزل إلى المترو فيقصد كل منهم إلى قطاره دون أن يستدل عليه من أحد ، فيجدون فى هذا مهارة خارقة . كان كل شىء غريباً عليهم . كانوا يخافون الناس ، ويعجبون لارتفاع العمائر ويضيعون فى الطرقات ، وقاموا ببضع رحلات مع « كوك » ، فاستمتعوا بجمال المدينة، وشاهدوا كثيراً من آثارها ، وظنوا أن إلمامهم باللغة الإنجليزية سيسهل مهمتهم فى لندن ، ولكنهم حين حاولوا التحدث إلى الشيالين ورجال الشرطة وجدوهم يتكلمون رطانة غير مفهومة . واستقبلهم صديق عرف موعد

وصولهم من القاهرة فكان ترجمانهم ، وحجز لهم ثلاث غرف معتدلة السعر فى حى فقير .

كان صاحبنا موفداً لدراسة الإعلان علماً وعملا . وقد وصل بعد أن أوشكت السنة الدراسية أن تنتصف ، فتوجه فى الصباح إلى مكتب البعثات . وهناك التقى بالسفير . قال لصاحبنا متهكماً : « طبعاً حضرت متأخراً لأنك كنت مشغولا بالإجهاز على منافسيك ! » وظن صاحبنا أن السفير يعرف ما حدث لولا أنه التفت إلى مدير المكتب قائلا : « من الأسف أن أعضاء البعثات يختارون لاعتبارات كثيرة ليست مؤهلاتهم أهمها » ، وبقى صاحبنا صامتاً يستمع .

وبناء على توجيهات المكتب اتصل بمجمع الدعاية التجارية يطلب موعداً مع رئيسه، فلما حدد له أخطأ طريقه إلى مقر المجمع ، فوصل متأخراً ، ورفضت السكرتيرة أن تدخله ، وحددت له موعداً آخر بعد أسبوعين ، فبقى دون عمل طول هذه المدة، وكان لهذا الدرس أثره القاسى فى نفسه ، فلم يعد يتأخر عن موعد إلا لسبب قاهر ، وأصبح معروفاً بالدقة فى مواعيده حتى بعد أن عاد إلى مصر .

عرف صاحبنا أن عليه أن يعمل فى الصباح فى إحدى وكالات الإعلان ، وأن يدرس فى المساء بإحدى الكليات المتخصصة، فقدم نفسه لشركة « كروفورد » حيث أشرفت عليه آنسة فى سن الخمسين، صارمة الوجه والقسمات . قالت له : « ستعمل ساعياً تنقل الأصول والكليشيهات بين المكاتب لمدة شهر حتى تعرف العلاقة بينها . وتقوم على تصنيف الكليشيهات وحفظها فى الخزائن شهراً آخر ، ثم تعمل على آله لطبع التجارب شهراً ثالثاً . وبعد ذلك تجلس إلى مكتب فتعمل فى الإدارات المختلفة » .

وأومأ صاحبنا علامة الموافقة ، ثم قام من عندها قلقاً على كرامته، فهو مدرس بمدارس التجارة وعضو بعثة ، ومن كان هكذا لا يصح أن

يعمل ساعياً ، ولكنه آثر الانصياع خوفاً من نتائج المخالفة .

وطلب منه موظف فى الدور الأول أن يأخذ أوراقاً إلى زميل له فى الدور السابع ، فافترض أن الصعود بالمصعد ، ولكن العامل صده قائلا : « إن السعاة لا حق لهم فى استخدام المصاعد » ، وصعد صاحبنا على رجليه !

وظل يصعد وينزل مع ساع أصيل نشأت بينهما صداقة بسبب العمل ، ساعد على تمكنها أن صاحبنا كان يكثر من تقديم السجائر له . وذات يوم جاء رئيس مجلس الإدارة إلى الشركة فى سيارته ، وإلى جانبه فتاة جميلة ، عرفها صاحبنا على الفور ، فهى التى تنظف مدخل الدار . قال لصديقه : « أليس عيباً أن يصادق رئيس مجلس الإدارة هذه الفتاة التى تعمل عنده ؟ »، فضحك الصديق من جهل صاحبنا وقال : « هذه الفتاة العاملة هى ابنة رئيس مجلس الإدارة ! إنها تبدأ هكذا لتصبح فى النهاية مديرة لمثل هذه الشركة ، ولها أخ يعمل جرسوناً فى مطعم كبير للسمك ، سيكون هو الآخر مديراً له » ، فحمد صاحبنا ربه لأنه لم يبدأ بتنظيف الأرض !

وكان عمله محل الرضا ، لولا أن تأخر فى الصباح مرتين خلال سنة ونصف سنة ، فتلقى فى المرة الأولى نظرة جادة من تحت نظارة المشرفة ، وفى المرة الثانية استدعته وطلبت إليه حين يتأخر أن يتغيب ، ولولا أنه أخطأ مرة فوضع أحد الكليشيهات فى غير مكانه ، فتاه منه ، ولم يستطع تقديم تجربة منه فى الوقت المناسب ، فلقى فى هذا تعنيفاً كبيراً ، ولولا أنه أخطأ مرة فأرسل تجربة سيئة الطبع فرجعت له مع كثير من التوبيخ .

لقد تعلم من هذه الأخطاء الصغيرة أن يتجنب ما فوقها ، وتكوّن عنده سلوك ذهنى يعنى بالتفاصيل لتجىء الكليات سليمة. كان يعتقد أن المبدأ هو المهم ، فعرف أن أسلوب التنفيذ لا يقل أهمية عن المبدأ .

وعرف شيئاً كبيراً هو أنه لا يعرف ! فقد كان يتولى تدريس الإعلان فى مدارس التجارة على أنه لغة جذابة تستدرج الناس إلى الشراء ، وكان يدور حول هذا المعنى البدائى فلا يحيد عنه ، ثم وجد الإعلان صناعة كبرى تحدد خصائص المستهلكين لكل سلعة ، وتضع الصيغ والرسوم التى تصلح لهم ، ثم تنتقى وسائل النشر التى تصل إليهم . ووجد وكالات الإعلان مصانع كبيرة فيها أستديوهات ومطابع ومخرجون ومصورون وكتاب ورسامون . دخل صاحبنا وكالة « كروفورد » جاهلا لا يشعر بحاجته إلى العلم ، وتركها نصف جاهل يبحث عن العلم فى كل مكان .

أما الكلية فلن ينسى صاحبنا أول مرة دخلها . لقد وجد فى المدرج امرأة عارية تمثل للطلاب تحت إشراف الأستاذ، لتبين لهم الفرق فى الإخراج بين الضحك والتثاؤب ، بين الجرى والترنح ، بين الموت والنوم ، وكانت تبين أثر ذلك فى قسمات وجهها فيسجله الطلاب فى كراساتهم . أما صاحبنا فكان مشغولا عن ذلك بالتفرج على جسمها واستراق النظر لصدرها . ولما تكرر حضورها لم يعد يجد فيها شيئاً مثيراً . إن صدرها بقى جميلا ، ولكنه لم يعد يستثير فيه رغبة جنسية ، وإنما يثير عاطفة جمالية ، وبقى تكوين جسمها رائعاً ، ولكنه بعد أن كان طعاماً للغريزة أصبح مقياساً عقلياً للنسبة والتناسب .

كان صاحبنا يخجل أول الأمر وهو يرى هذه العارية ، فأصبح لا يجد مانعاً من أن يتحدث إليها ، بل أصبح يتردد على أستديو خارج الكلية تتردد عليه نماذج من العاريات لتصوير أجزاء من أجسامهن تظهر فى الإعلانات . وكان يشترك مع غيره فى البحث دون أن تستبد بتفكيره اتجاهاته الأولى .

لقد طلب إليه أستاذه فى الفن أن يتردد على هذا الأستديو ، ليثقف نفسه ، بعد أن اختبره فأطلعه على لوحتين فى إحداهما لونان

متكاملان ، وفى الأخرى لونان متنافران ، وطلب منه أن يقول أيهما أجمل ، فوقع اختياره على اللوحة المتنافرة . وهرش الأستاذ رأسه ، ففهم صاحبنا أنه أخطأ . ثم أبرز الأستاذ لوحتين أخريين ، وسأل صاحبنا عن رأيه ، فود لو اختار واحدة بالذات ، ولكنه عكس قراره ، فاختار الأخرى ، وأظهر الأستاذ موافقته ، لولا أن صاحبنا صارحه بحقيقة شعوره ، فقال الأستاذ : « ظننت أنك خالفت رأيك ! »

ومن تردد صاحبنا على الأستديو اقتنع بأن العرى ليس مخيفاً إلى الحد الذى كان يتصوره ، وأن القبائل التى تعيش عارية فى خط الاستواء ليست بالضرورة منحلة ، بل بدأ يعرف سبباً لإنشاء أندية العراة . إن القائمين عليها يريدون تجريد المرأة من أهم أسلحتها وهو التجمل ، وتجريد الرجل من أهم سبيل للوقوع فى الإثم وهو التخيل . ورجع بذاكرته إلى أيام المراهقة ، فقد نظر من شباكه يوماً فرأى فى الناحية الأخرى من الحارة خيالا يتحرك لسيدة خلف « الشيش » . والتهبت عاطفته بجمال السيدة ثم انفتح « الشيش » فى الصباح فإذا الخيال « لقلة » .

لقد تبدلت عقلية صاحبنا بعد أشهر من إقامته فى إنجلترا ، فتحرر فى آرائه وإن لم يتغير فى تصرفاته . كان يؤمن بمسلمات لا يعرف مأتاها ، ولكن فيه نزوعاً للدفاع عنها واستعداداً لمهاجمة من يخالفها ، فأصبح يرى الرأى ولا يستبعد من حسابه أن يكون خاطئاً ، ولذلك ينصت لمن يخالفه عسى أن يستفيد من وجهة نظره .

كان يناقش لينتصر فى المناقشة ، فأصبحت المناقشة عنده تعاوناً فى البحث عن الحقيقة ، وكان إذا اختلف مع سواه يعد موضوع الخلاف كلا لا يتجزأ ، فإما اتفق عليه أو تركه معلقاً ، فأصبح لا يمانع فى أن يتفق على بعض الأجزاء ويترك الأخرى إلى أن يتيسر الاتفاق عليها . كان عندما يتناقش يشغل نفسه بما يريد هو أن يقوله ، لا بما يود

الآخر أن يبديه ، فأصبح يؤمن بفضيلة الإنصات ويعرف أنها عملية إيجابية توفق بين مختلف الاتجاهات لتصل إلى الحق الذى هو — فى أغلب الأحيان — وسط بين باطلين .

لكن ما هو الحق ؟ لقد رأى صاحبنا رجال الأعمال فى إنجلترا يحققون مصالحهم عن طريق مصالح الآخرين . فهم لا يبيعون سلعة أو فكرة إلا إذا كان ثمنها أكبر منها عندهم ، وهى أكبر من ثمنها عند الآخرين . العبرة إذن ليست بالحق ، وإنما هى بالحل الذى يلتقى عنده الطرفان . إن الحق لا تعرفه البشرية ، وإنما يعرفه الله وحده !

وجاءت امرأته إلى لندن تحمل طفلا عمره ثلاثة أشهر ، فأعدت لها الأسرة التى يسكن عندها عشاء خاصًّا ، وكانت ابنة الأسرة مخطوبة ، فجلست على ركبتى خطيبها الذى جعل يقبلها ويعبث بشعرها على سبيل المجاملة ، ولكن امرأة صاحبنا اشمأزت من هذا التصرف ، فتركت غرفة الاستقبال وحبست نفسها فى غرفتها . ولما طال انتظارها قام صاحبنا يستعجلها فوجدها تبكى . قالت : « إذا كنت تقبل أن تعيش فى هذا البيت فإن كرامتى لا تسمح بذلك . دعنى أعود إلى بلدى » . وحاول صاحبنا أن يقفها على حقيقة الأمر ، ولكنها لم تقتنع ، فاعتذر لأصحاب البيت عنها بحجة أنها تشكو مغصاً شديداً من أثر سفرها الطويل بالباخرة ، وأيد كلامه بشراء دواء للمغص من إحدى الصيدليات .

ولم يجد صاحبنا بدًّا من أن يترك هذه الأسرة إلى شقة مفروشة ، فأصبح على الزوجة أن تعنى بالطعام وشئون البيت إلى جانب العناية بالطفل ، وكان زوجها يساعدها فى ذلك إلى أن انعقد مؤتمر فلسطين فى لندن سنة ١٩٣٨ ، فاستعان به الشيخ حافظ وهبة وزير السعودية ليعمل فى المفوضية ، إلى جانب عمله . كانت البلاد العربية المستقلة ثلاثة هى : مصر والسعودية واليمن . وكان الأمير محمد عبد المنعم هو رئيس الوفد المصرى ، يساعده على ماهر ، وكان الأمير فيصل

هو رئيس الوفد السعودى ، وسيف الإسلام أحمد رئيس الوفد اليمنى .

وجاءت جلسة الافتتاح فاحتج الوفد اليمنى على أن مكانه بعد وفد السعودية ، وكان بين المملكتين خلاف — فحاول على ماهر أن يشرح لسيف الإسلام أحمد أن ترتيب الوفود وضع حسب الحروف الأولى لبلادهم ، ولكنه لم يقتنع . فنزل الوفد المصرى عن مكانه للوفد اليمنى وحلت المشكلة . ولكن حدث بعد ذلك مالم يكن فى الحسبان ، فبعد أن ألقى مستر « إيدن » وزير الخارجية البريطانية كلمته ، ورد عليها على ماهر باسم الوفود العربية ، وقف سيف الإسلام — دون أن يدعوه أحد — وقال : « أيها السادة . إن الخلاف القائم بين الإنجليز والعرب سببه العفاريت ! » فوقف الدكتور أحمد فريد رفاعى ، وكان أميناً عاماً للوفد اليمنى ، وقال كأنما يترجم كلام سيف الإسلام : « إن حسن النية كفيل بإزالة سوء التفاهم بين الإنجليز والعرب » وواصل سيف الإسلام كلامه : « إن العفاريت ألقت علىّ الطوب مرة ، فرددت فى سرى (قل هو الله أحد . الله الصمد) ، فجرت العفاريت وجريت فى إثرها وأنا أقول : (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) حتى اختفت » .

وهنا ترجم فريد رفاعى قائلا : « إنه مهما يكن من اختلاف وجهات النظر فإن على كل طرف أن يضع فى اعتباره وجهة نظر الطرف الآخر ، لتلتقى النظرتان عند حل مشترك » . واستعد سيف الإسلام لكى يستأنف كلامه ، فنظر فريد رفاعى إلى على ماهر وقال بالعربية : « أنا استنفدت كل ما عندى من اختلاقات فأسعفنى يا باشا » ؛ فقام على ماهر وربت على كتف سيف الإسلام راجياً أن يجلس ، ولكنه أبى وخرج غاضباً من المؤتمر ، وكان الصحفيون الإنجليز يقفون فى الخارج ، فلما رأوا الأمير يخرج مبكراً ، سألوا فريد رفاعى ، وكان معه ، عن السبب فقال : « إن سموه يرفض أن يساوم على حقوق العرب » وظهرت الصحف الإنجليزية فى الصباح وعلى صدرها هذا العنوان :

« أمير اليمن لا يقبل التفاوض فى حقوق العرب » . وسافر سيف الإسلام غاضباً إلى « باريس » وبقى فيها حتى انتدب الرؤساء العرب الأمير محمد عبد المنعم لمصالحته . وجاء الاثنان إلى فندق « دورشستر » الذى تقيم فيه الوفود ضيوفاً على الحكومة البريطانية ، فخطر لسيف الإسلام أن يسوغ سبب تمسكه بالعفاريت ، ورد عليه الأمير عبد المنعم مازحاً : « أنت اللى عفريت » فعدها سيف الإسلام قذفاً فى ذاته ، وشتم الأمير ، فرد عليه هذا بلكمة قوية وقع منها مغشياً عليه !

كان صاحبنا يحضر مؤتمر فلسطين مع الوفد السعودى ليقوم بالترجمة ، وكان يشاهد ويسمع عن هذه المناظر ، فيرى كيف يتناول الرؤساء العرب قضايانا الكبرى !!

وكان صاحبنا يذهب وزوجته فى المناسبات إلى النادى المصرى ، فيقابلان أصدقاءهما ، ويشتركان معهم فى وجبة مصرية ، ثم يطالعان الصحف العربية . وفى إحدى الأمسيات اشترك الجميع فى مناقشة عن سياسة الأحزاب وموقفها من الإنجليز ومن السراى . وكان محمد محمود قد تولى الوزارة وكان ابنه همام حاضراً. وهاجم أحد الأطباء الوفديين سياسة محمد محمود وجعل يقلده فى أحاديثه وخطبه متعمداً إثارة « همام » ، لكن « همام » كان يؤمن بحرية الرأى فبقى ينصت ولا يعقب .

وخطر لأحد أعضاء النادى أن يداعب الطبيب ، فطلبه بعد أيام فى التليفون مقلداً صوت مدير البعثة : « قل لى يا دكتور ؛ هل صحيح أنك شتمت رئيس الوزراء أمام نجله همام ؟» قال الطبيب : « كيف ؟ » قال مدير البعثة : « لقد جاءتنى برقية باستدعائك إلى مصر بسبب هذه التهمة » ، فصرخ الطبيب : « هذا فظيع .إنى برىء ، والتهمة مختلقة» ، قال المدير : « إذن تعال لمقابلتى » . فجرى الطبيب إلى المكتب ، وتقدم إلى شباك الاستعلامات فملأ بطاقة قال فيها إنه يقابل المدير بناء على موعد سابق .

وذهبت العاملة تقدم البطاقة لمدير المكتب فلم يفهم معناها ، ولكنه لم يمانع فى استقبال صاحبها . ودخل الطبيب منفعلا يقول : « والله يا سعادة البيه أنا مظلوم . أنا لم أتكلم فى حق رئيس الوزراء ، وأرجوك أن تدافع عنى . فلم أكن فى يوم من الأيام وفدياً » ؛ فجعل المدير يهز رأسه مستفسراً ، واستمر الطبيب يتدفق . قال المدير : « من أين جاءتك هذه المعلومات يا دكتور ؟» قال : « ألم تذكر لى ذلك فى التليفون اليوم ؟ » ، فضحك المدير وقال : « أنا لم أتحدث إلى أحد ، فابحث عمن يسخر منك » . فخرج الطبيب يلعن من سخر منه ، ولكنه حمد الله لأن الحكاية غير صحيحة .

وبقى صاحبنا وإخوانه يتناقلون هذا الفصل ، ويضحكون منه ، إلى أن جاءت الأنباء بما هو فوق الأحزاب وسياسة الأحزاب ، فأكدت أن الحرب العالمية الثانية على الأبواب ، وكان صاحبنا قد أنهى امتحانه ، ونجح فيما أوفد من أجله ، فأخطر صاحبة البيت بأنه سيتركه بعد أسبوع .

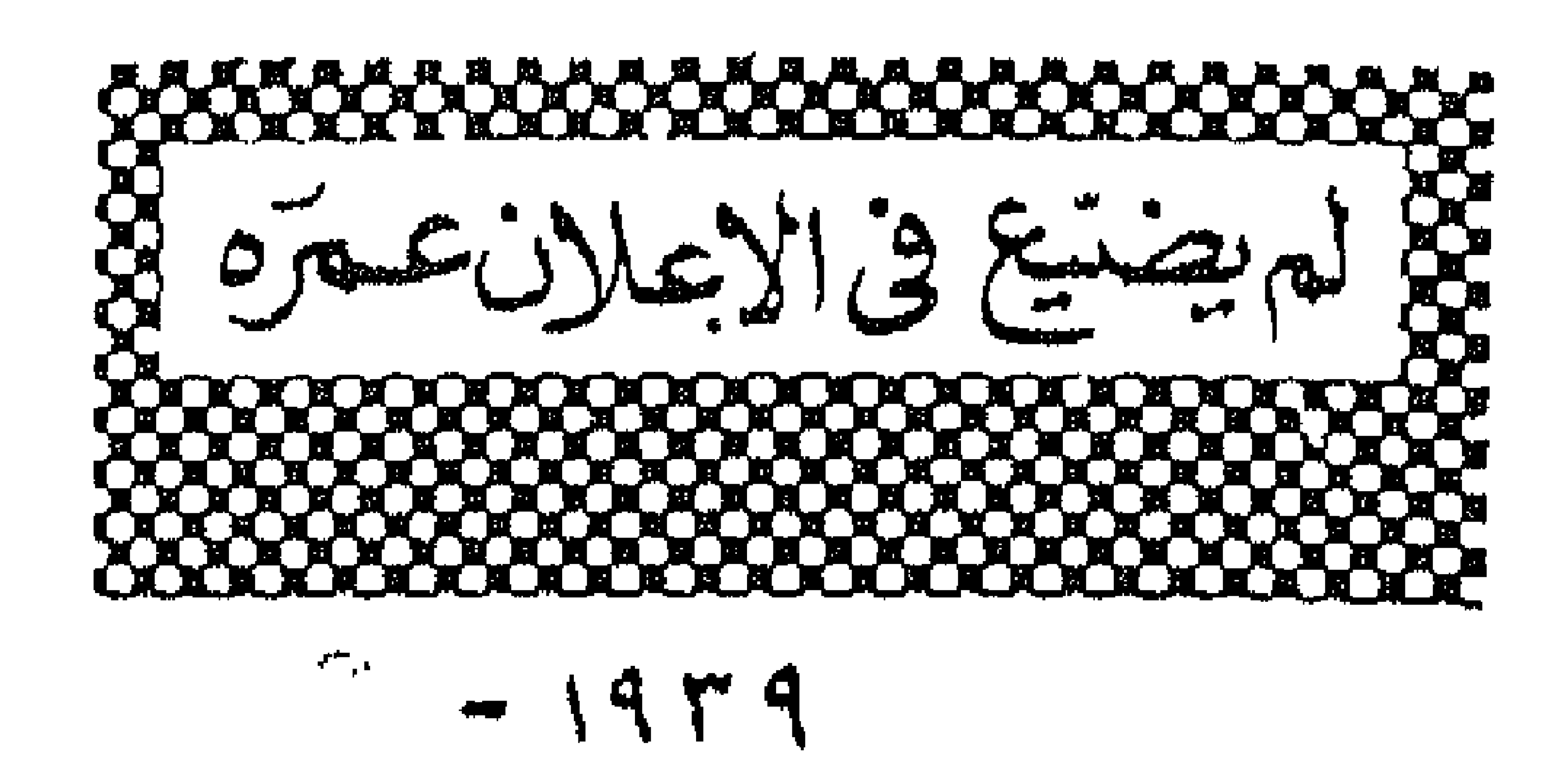
وجاءت لتعاين الشقة فوجدت ورق الحائط ممزقاً فى جزء صغير منه ، فطلبت إبداله كله ، حيث إن إصلاحه متعذر لعدم وجود اللون . ونشأت بسبب ذلك مناقشات كثيرة ، هل ما حدث استهلاك عادى يغطيه الإيجار ، أو هو إتلاف يقتضى التعويض ؟ وفى إحدى الجلسات كان عند صاحبنا ضيف ، فتدخل فى الحديث هازئاً من طلب التعويض قالت له صاحبة البيت : « أرجوك يا سيدى ألا تتدخل فى أمر مقصور على مؤجر ومستأجر » ، فثار صاحبنا لهذا التقريع ، وقال : « مادمت تهينين ضيفى فلا تفاهم بيننا ». فرأت أن هذا الأمر العارض قد يفسد المفاوضات ، وقدمت اعتذارها على الفور للضيف ، ثم التفتت لصاحبنا قائلة : « أما وقد قدمت اعتذارى فقد انتهت المسألة ، ولنعد إلى موضوعنا الأصيل » . ولما لم يصلا إلى حل قالت فى صوت خفيض : « معذرة

فإنى مضطرة الآن لوضع الأمر فى يد المحامى » . واستأذنت فى الانصراف ، فودعها صاحبنا وكان خارجاً هو الآخر لكليته .

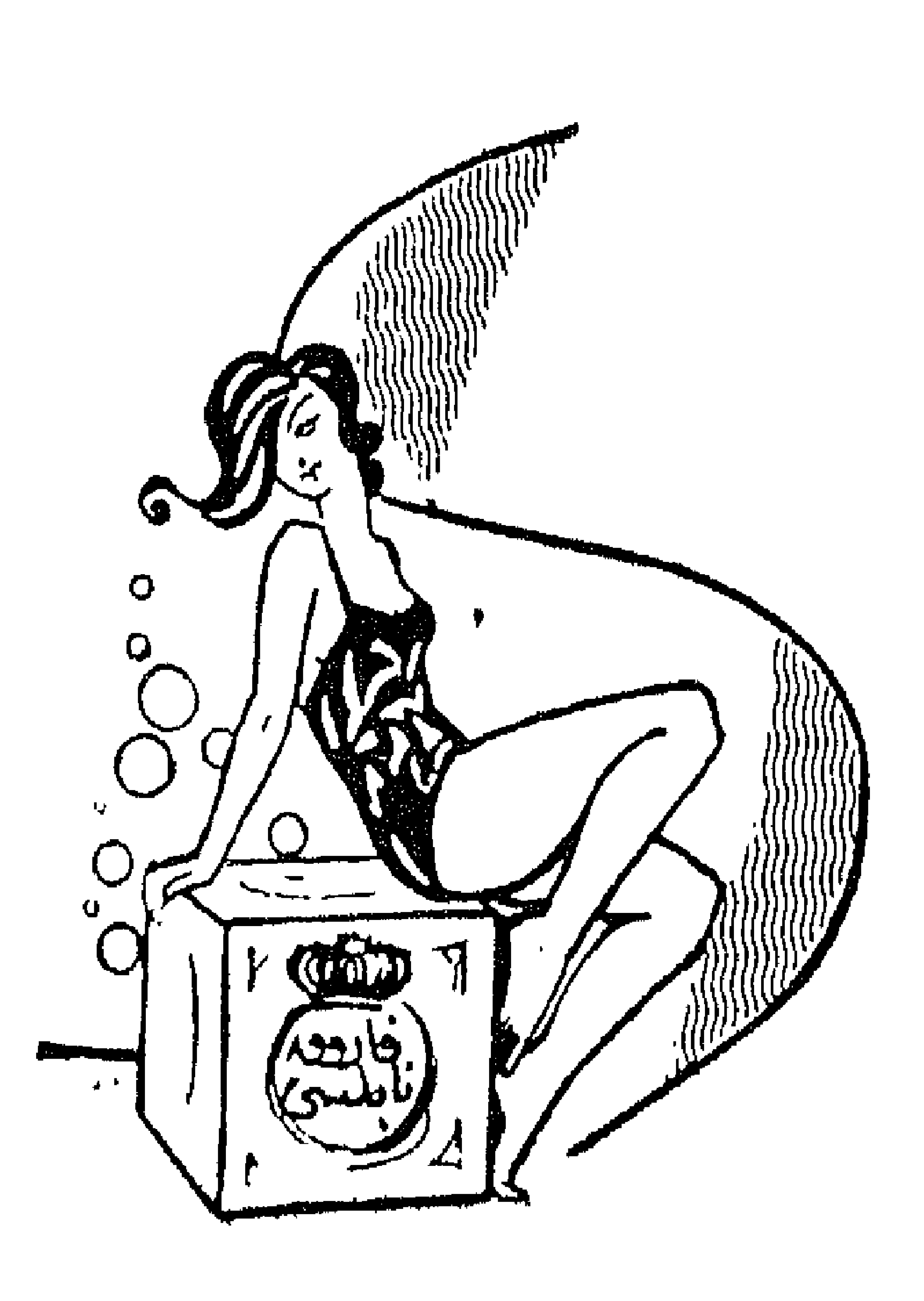
وعندما ركبت السيدة سيارتها رأت صاحبنا يمشى ليأخذ المترو ، فدعته ليركب معها ، وظن فى هذا معنى الترضية والعدول عن التهديد ، ولكنه تسلم بعد يومين اثنين إنذاراً أحمر بالحجز على أثاثه مع تحذيره من مغادرة الشقة قبل نظر القضية بعد ثلاثة أيام .

وذهب صاحبنا يبحث عن لون الورق فى كل مكان حتى وجده عند تاجر للمخلفات ، فاشترى منه متراً بثلاثة شلنات ، وعاد به لصاحبة البيت ، قالت : « شكراً سألغى الآن الإجراءات » .

وبعد يومين ذهب صاحبنا إلى محطة فيكتوريا ، ليأخذ القطار مع أسرته إلى « دوفر » فوجد على رصيف المحطة سيدة وباقة ورد ، إنها صاحبة البيت تقوم بواجب التوديع . ما أجمل الموضوعية فى التفكير !



- ١٩٣٩ -



وصلت الباخرة « كوثر » إلى مشارف الإسكندرية قبل قيام الحرب العالمية الثانية بأسبوع ، فخفضت سرعتها ، وكان صاحبنا يضيق ببطئها ، لأنه لم يعد يطيق الصبر على هذا الميل الأخير الذى يفصل بينه وبين الوطن ، ولكن الجو محا بضيائه آية الضباب ، فملأ قلبه إشراقاً وحباً . وضحك البحر ، فأخذ يهدهد الباخرة ، ويتلاعب بالموج من حواليها ، ثم يرسل الرذاذ إلى وجه صاحبنا ، فيداعب أنفه وجبينه ، ليهون عليه أمر المسافة الباقية .

وأرسلت الزوجة بصرها ، فى منظار لديها ، فشاهدت جموعاً من المستقبلين على رصيف الميناء ، وأيقنت أن من بينهم ولدها الأكبر — وكانت قد تركته فى رعاية جدته — فاستيقظت أمومتها ، وتحركت من أعماقها إلى شفتيها ، فتلاقتا على خد ابنها الذى معها — وكان نسخة من أخيه — فى قبلة نطقت ببعض ما يعتمل فى نفسها .

وأخيراً رست الباخرة ، فتعطلت لغة الكلام وجلجلت القبلات ، ثم برز من بين الصفوف مدير الجمارك — وكان من أقرباء صاحبنا — فأشار بيده فإذا الشيالون يتزاحمون على الحقائب ويتقلونها إلى الخارج دون أن تمر برجال الجمارك ، وكفى الشيالين شرفاً أنهم حملوها ولم يتقاضوا عنها شيئاً . وانطلقت سيارة المدير بالقادمين رأساً إلى الطريق العام . لم يكن فى حقائب صاحبنا ولا معه ما يخضع للرسوم الجمركية ، ولكنه تمكن بنفوذه من خرق القانون بمجرد أن انتقل من إنجلترا إلى مصر !

وكان أول ما فعله هو أن يقرأ الإعلانات التى تظهر فى الصحف وعلى الملصقات ، كان معظمها من نوع « شرفونا تجدوا ما يسركم » للإعلان عن محل كبير ، و « قنبلة تنفجر فى ميدان العتبة » للإعلان عن افتتاح مطعم جديد ، كأن الطاعمين مغرمون بالأكل وسط القنابل ! وكان أصحاب المطاعم حريصين على نشر صورهم فى الإعلانات كأن الناس « تفت » فى شواربهم ولحاهم ، أو كأن هذه الشوارب واللحى من شأنها أن تختلط بالشوربة الساخنة تزكى طعمها ! كان صاحب مكتب يضىء واجهته بلفظ الجلالة « الله » ثم لا يتبعه بشىء يدل على نوع عمله . وكانت الأخطاء المطبعية كثيرة ، حتى لقد أرادت شركة أن تعلن حضرات عملائها فظهر إعلان يقول : « شركة ... تلعن حضرات عملائها » وأرادت دار كبيرة للنشر أن تعلن عن نفسها فقال الإعلان إن الدار « للنشل » .

وكان سمعان صيدناوى يعلن عن محله بوصفه « أكبر معرض فى مصر » فنسيت الجريدة نقطة الضاد ! وكان بائع ذكى للفول فى مصر القديمة يكتب على محله : « إن خلص الفول أنا غير مسئول » ! ومطعم لأحشاء الذبائح أمام مسجد السلطان أبو العلا بشارع فؤاد يكتب على لوحته : « كل باطمئنان ، وادع للسلطان » . وكانت الصحف ملأى بإعلانات « لولا الراعى ما انكست الرعية » .

كان الإعلان بالفطرة . لم يكن بيعاً على الورق ، وإنما كان دعاية جوفاء قد تسىء أحياناً ولا تنفع . ورأى صاحبنا هذا الحال ، فذهب إلى مراقبة التعليم الفنى يطلب إنشاء دراسة جادة فى الإعلان يقوم هو عليها ، فقيل له إن البلد ليس فى حاجة إلى مثل هذه الدراسة ، وإن عليه أن يعود إلى تدريس الحساب التجارى وتنظيم المكاتب ! وكان صاحبنا يعرف صاحب الأهرام ، عرفه فى لندن فى صيف ١٩٣٨ ، واصطحبه لزيارة إحدى الصحف وإحدى وكالات الإعلان ، فطلب معونته ،

فوافق على أن ينشئ هذه الدراسة فى الأهرام .

وذهب صاحبنا يستأذن فى التدريس بالأهرام ، إلا أن المراقب استنكف ذلك ، فأنشأ فى معهد التجارة العالى دراسة مسائية ذات شعبتين ، إحداهما لممارسى الإعلانات فى دور الأهرام والهلال وشركة الإعلانات الشرقية ، والشركات المعلنة ، ووكالات الإعلان ، والأخرى لخريجى مدارس التجارة ممن يرغبون فى التخصص فى الإعلان .

وأثارت هذه الدراسة اهتماماً كبيراً فى الوسط المصرى ، حتى لقد طلب المصور من صاحبنا كتابة عشر مقالات عن الإعلان تقاضى عن كل منها جنيهاً كاملا ، وعهد إليه نابلسى النمر بإعلاناته فظهر فى الصحف هذا الشعار : « النمر على الصابون علامة الصنف المضمون » .

ثم توقفت الإعلانات عن هذا الصابون لظروف خاصة ، فانتهز منافسه « نابلسى فاروق » هذه الفرصة ، واتفق مع صاحبنا على أن يشرف على سياسته التسويقية . وكانت الرقابة على الصحف شديدة ، فظهرت أخبار اليوم وفيها صفحة كاملة بيضاء فى وسطها هذه العبارة :

« هذه الصفحة لم يحذفها الرقيب ، وإنما استحمت بنابلسى فاروق » .

وفى اليوم التالى ظهرت الأهرام والمساحة اليسرى للإعلانات فى الصفحة الأولى بيضاء إلا من هذه الجملة « إذا أردت أن تقرأ ما فى هذه المساحة فارفع الورقة للضوء » وكانت المساحة المقابلة من الظهر قد تركت بيضاء كذلك وكتب عليها من اليسار إلى اليمين « نابلسى فاروق » فظهر الاسم معتدلا من خلال الورق .

ثم امتلأت الصحف بأنباء المفاوضات بين الأحزاب لتحقيق الائتلاف بينها ، فظهر فى الصحف عنوان كبير مثير : « اتفق الزعماء » ، وتحت العنوان صور مصطفى النحاس ومكرم عبيد ومحمود بسيونى رئيس الشيوخ وحافظ رمضان رئيس الحزب الوطنى ومحمد حسين هيكل رئيس

تحرير السياسة ، وشهادات بخط كل منهم تؤكد جودة نابلسي فاروق ثم ينتهي الإعلان : « وهكذا اتفق الزعماء على أن نابلسي فاروق ملك الصابون » .

وكان صاحبنا قد تعاقد مع أحد الصحفيين على أن يقدم علبة من الكرتون فيها قطعتان من الصابون لكل زعيم ليجربه فى بيته ، ثم يرجوه الصحفى بعد ذلك أن يكتب رأيه تشجيعاً لصناعة مصرية ، فقبل الجميع إلا أحمد ماهر ، إذ تقدم الصحفى إليه بطلب شهادته ، فقال إن ابنته جربت الصابون فوجدته رديئاً .. وأسرع الصحفى فى الانصراف !

وفوجىء صاحبنا يوماً بزعيم يهدد برفع دعوى لأن الشهادة المنسوبة إليه مزورة ، فلما رجع إلى الصحفى أكد أنها صحيحة . وذهبا إلى هذا الزعيم فى نادى الحزب ، فظهر أن الصحفى استكتبه وهو سكران فلم يذكر بعد ذلك ما حدث ! .

وكان لصاحبنا صديق من أعضاء مجلس النواب، فطلب إليه أن يقدم استجواباً عن هؤلاء الزعماء الذين يسخرون أسماءهم فى الإعلانات لترويج صابون معين ، ولم يكن الصديق يعرف أن صاحبنا مسئول عن هذه الإعلانات فقدم الاستجواب .

وفى اليوم التالى قابل صاحبنا « أنطون الجميل» رئيس تحرير الأهرام، وكان يعرف أنه رجل نزيه لا يؤثر فيه الذهب ولا الجنس ولا الخمر والميسر، ولكنه ذواقه يؤثر فيه الشعر، فحفظ بعض الأشعار وطلب إليه موعداً ، ثم جعل يستفسر منه عن معنى بعض الأبيات ودلالاتها ، فأضاء النور الأحمر إعلاناً بأنه مشغول ، ومنع دخول المحررين والإداريين بالأهرام إلى غرفته ، وفى هذا الجو استمضاه صاحبنا على مقال يرد على استجواب النائب عنوانه « لماذا يرغى هذا النائب ويزبد ؟ » فاحتج مدير إعلانات الأهرام على هذا النشر لدى رئيس التحرير ، وأدرك الباشا بعد فوات الوقت أنها كانت مناورة إعلانية .

ثم جاءت الكارثة . لقد ظهر إعلان فى الصحف فيه فتاة جميلة بلباس البحر تجلس على قطعة كبيرة من نابلسى فاروق ، وقد كتب تحت الصورة : « نابلسى فاروق عماد الجمال » ، فإذا السراى الملكية تتهم صاحب الصابون بأنه أهان الذات الملكية ، لأن الفتاة تجلس على التاج وهو علامة الصابون ! كانت فى « السراى » عصابة تتحرش بالناس عن طريق اتهامهم بالعيب فى الذات الملكية ، ثم تسوى الموضوع معهم لقاء بضعة ألوف من الجنيهات . وأجفل صاحب الصابون قائلا إن له خبيراً فى الإعلانات هو الذى يتولى صياغتها ، وأحال إليه المسئولية ، ولكن العصابة كانت تعرف أن الخبير مفلس ، وأن صاحب الصابون ملىء فتشبثت به ، ودفع ثلاثة آلاف جنيه لوسيط من كبار الصحفيين !

ونجحت الحملة الإعلانية لنابلسى فاروق نجاحاً غير مسبوق رفع مبيعاته إلى ستة أضعاف ، ورفع سمعة صاحبنا بنفس النسبة ، فعهد إليه مصنع « قها للأطعمة المحفوظة » أن يصمم إعلاناته ، وظهرت فى الصحف حملة شعارها «منتجات قها يحبها من ذاقها . منتجات قها ، لو ذقتها لعشقتها » .

وطلبت منه « دار الهلال » أن يقوم ببحث ميدانى عن خصائص قراء مجلتى المصور والاثنين ، فكان أول بحث من نوعه فى الشرق الأوسط ، واشترك فيه خمسة وعشرون مستقصياً من خريجى الدراسة المسائية ، تقاضى كل منهم ثلاثة جنيهات عن عمل استغرق ستة أشهر ، وتقاضى الأستاذ الذى أشرف عليه عشرين جنيهاً فلم تبلغ الأتعاب كلها مائة جنيه ! وكانت الجنيهات الثلاثة تغطى مصاريف الانتقال وبدل الطعام وكان على المشرف العام — ضمن المقاولة — أن يشرف على إخراج كتيب باسم « دليل المعلن » فيضع له التصميم ويكتب المتن .

وجاءته يوماً فى أثناء البحث مندوبة تعمل فى إعلانات الدار ، قالت إنها كلما تحدثت إلى معلن كبير فى الإعلان حدثها فى الغرام .

وهى لا تريد أن تفقد ميزانيته الإعلانية ، ولا تريد أن تفقد نفسها . فما العمل ؟ ومكث صاحبنا يفكر .. ثم طلب منها أن تطلب منه موعداً لمديرها بحجة أنه يريد أن يفتش عملها . وذهب صاحبنا فى الموعد ، فسأله عن مدى رضائه عن إعلاناته فى المصور ، فأثنى عليها وعلى مندوبة الإعلانات ، فانتهز المدير المزعوم هذه الفرصة وقال : « وسيزيد رضاؤك عن هذه الفتاة حين تعرف أنها مخطوبة ومشغولة بتربية إخوتها الصغار » فانصرف المعلن عن ملاحقتها منذ هذا اليوم بعد أن رآها تلبس فى أصبعها تعويذة يسمونها « دبلة » !

كان دخل صاحبنا من كل هذا النشاط الإعلانى لا يكاد يصل إلى عشرة جنيهات فى الشهر ، ذلك أن المعلنين لم يكونوا يزنون أتعابه بميزان عمله ، وإنما كانوا يقدرونها بما يناسب مستواه، وقد كان مرتبه عشرين جنيهاً ، فكان قميصه من قماش متين ، وحذاؤه ذا نعل سميك ، ومنديله من صنف رخيص . كان قادراً على أن يعلن عن السلع والخدمات ، وعاجزاً عن أن يعلن عن نفسه !

وتجمد له مبلغ كبير من مكافآت التدريس فى الدراسة المسائية ، فذهب إلى الوزارة يطلب حقه ، ولكن موظفاً فى المستخدمين أشار إلى أنه يريد مكافأة مقابل تسهيل الصرف ، فابتعد عنه صاحبنا ، ودخل إلى مدير المستخدمين — وكان من أصدقائه — فوعده المدير بأن يأمر بالصرف على الفور ، ودق الجرس فإذا الموظف نفسه هو الذى يدخل . قال له المدير : « لماذا لم تصرف مستحقات فلان ؟»قال : « إن دراسة الإعلان تابعة للتعليم التجارى ، وإن كان مقرها فى المعهد العالى فمكافآتها مكافآت التعليم المتوسط ، والأستاذ يطلب صرفها على أساس الدراسات العالية » . ورأى المدير فى هذا شبهة جدية تقتضى التريث فأبدى أسفه لصديقه . ولكن الصديق خرج فوجد الموظف فى انتظاره . قال : « إذا دفعت لى ريالا فإنك ستأخذ حقك الآن . وطأطأ صاحبنا رأسه

ودفع الريال ، فإذا الإذن يصدر ! ماذا جرى ؟ لقد أخرج الموظف من درجه فتوى من وزارة المالية بأن الدراسات التكميلية التى تعد لخريجى المدارس المتوسطة يكون حكمها حكم الدراسات العليا فى المكافآت .

وانصرف صاحبنا والنقود فى جيبه والقلق فى نفسه : هل المبلغ الذى دفعه للموظف مكافأة أو رشوة ؟ إنه لم يطلب من الموظف إخلالا بواجبه ، فكيف يكون رشوة ؟ ولم يقدم المبلغ بعد الأداء وإنما قدمه قبله ، فكيف يكون مكافأة ؟ وهل صحيح ما قرأه مرة فى إدارة الأعمال من أن المدير قد يرشو لمصلحة ، ولكن ليس من حقه أن يرتشى ؟ إننا إذا أبحنا الرشوة من ناحية فإننا نطلق قبولها من الناحية الأخرى . وهل قواعد الأخلاق مطلقة لا تعترف بقصد أو بظروف؟ إن كانت كذلك فهى لا تتصل بدنيانا التى نعيش عليها ، وإن كانت تتشكل بحسب الملابسات فهى ليست قواعد، وإنما هى اتجاهات توجه ولا تلزم .. واختصمت أفكاره فضاع صوابه !

على أن اهتمام صاحبنا بشئونه المالية لم يشغله عن المشاركة فى الشئون العامة للتعليم التجارى ، فقد كان سكرتير اللجنة الاستشارية ، وهى التى كانت تخطط لهذا التعليم ، وكان رئيسها محمد عبد الرزاق السنهورى المستشار الفنى للوزارة ، ومن أعضائها محمد صادق جوهر مراقب التعليم الفنى وكان رجلا عصبياً . ويظهر أنه كان بين الرجلين عداء ، فقد حدث بينهما نقاش فى أثناء أحد الاجتماعات احتد فجأة ، فقام مراقب التعليم الفنى ورفع مقعده فى وجه المستشار ، ولكن المستشار لم يتحرك من مكانه ، وإنما قام أعضاء اللجنة يحولون بين المراقب والاعتداء ، ثم رفع الأمر إلى « نجيب الهلالى » وزير المعارف ، فاستدعى السكرتير ، وكان قد سجل النقاش كلمة كلمة ، وسجل عبارات الأعضاء دون تصرف ، فكان لهذه الدقة فى الرواية أثرها فى تحديد المسئولية . وعرض

المستشار الفنى على صاحبنا أن يعمل مديراً لمكتبه، ولكنه آثر البقاء فى دنيا الإعلان .

ولما تخرجت أول دفعة فى المعهد التجارى العالى أعلن صاحبنا عنها ، فأعد مجلداً جذاباً تتحدث كل صفحة فيه عن خريج ، فعليها صورته ودرجاته فى الدبلوم، ووزنه ولونه واللغات التى يحسنها ، والرياضة التى يمارسها ، ونوع العمل الذى يصلح له .. إلى غير ذلك من البيانات التى يبحث عنها رجال الأعمال . ودار بهذا المجلد على رؤساء مجالس الإدارة ، فكان يرشح الشخص المناسب للمكان المناسب ، ووظف الخريجين جميعاً .

لقد كان صاحبنا أول من درس الإعلان دراسة علمية فى إنجلترا . وكانت هذه الدراسة مقصورة على الإنجليز وحدهم ، ولكن صاحبنا عرف أن الأمين العام لمجمع الدعاية التجارية كان قد أمضى مدة طويلة فى السلك السياسى بالقاهرة ، وتعرف بزوجته فيها ، وأنجب منها ولده الوحيد ، فاستعان به على السماح له بالالتحاق بهذه الدراسة .

ولما زار جبرائيل تقلا صاحب الأهرام لندن فى سنة ١٩٣٨ ، سعد بصاحبنا كثيراً ، وقال إنه لم يكن يعرف أن وزارة المعارف غيرت اتجاهها فى قصر بعثاتها على دراسة الآداب واللغة الإنجليزية . وقص على صاحبنا قصة نشر الإعلانات عن الخمور لأول مرة فى الأهرام . قال إن أحد الوكلاء زاره فى مكتبه وعرض عليه حملة إعلانية عن الويسكى بثلاثة آلاف جنيه ، وكان هذا مبلغاً يسيل له لعاب أى ناشر فى ذلك الوقت ، فاستشار رئيس تحريره داود بركات، فقال إنه شخصياً يحب الويسكى ، ولكنه يخاف أن يهجم الجمهور فى الصباح على مكاتب الأهرام ويرجمها بالحجارة . وأخيراً رأى الثلاثة أن من الخير إشراك « المصرى » فى الحملة من باب الحماية ، فرحبت بذلك ، ولكنها طلبت إشراك « الجهاد » كذلك ، وكان صاحبها توفيق دياب فى ضائقة مالية، فسعد بهذا العرض

أيضاً ، واتفقت الصحف الثلاث على أن تنشر الإعلان الأول فى يوم محدد . فلما جاء اليوم ظهرت الأهرام والجهاد بالإعلان ، وظهرت المصرى خالية منه . لقد أضمر صاحبها أن يتخلف ليرى اتجاه الجمهور ، فإن غضب أفلت من غضبه ، وإن مرت العاصفة بسلام قال لزملائه إن سهواً حدث ، وإن المختص قد عوقب أشد العقاب .

والحق أن الإعلان بصفة عامة كان بالنسبة للتحرير كالعظم فى اللحم ، وكان القراء ينظرون إليه كمجموعة مبالغات وأكاذيب . وساعد على ذلك أن الصحف كانت تبيع أعمدتها التحريرية . فتصبح إحداها لسان حال المضاربين على الصعود فى بورصة القطن . وتصبح أخرى لسان حال المضاربين على النزول . بل إن من أصحاب الصحف من كان يشترك مع المضاربين بنسبة مئوية فى الربح . وإذا كانت الدور الصحفية قد نهضت فى الأربعينات ، فاشترت مطابع حديثة ، فإن معظم الفضل فى ذلك يرجع لإعلانات البورصة .

وإذا كانت الصحف قد أثرت على حساب الناس ، فقد أثرى على حسابها أحد المعلنين . أراد أن يحصل على توكيل ثلاجات من إحدى الشركات الأمريكية ، فاشترطت الشركة لذلك أن يبيع فى السنة الأولى ثلاجات بمليون جنيه ، ولم يكن يستطيع ذلك ، فجاء إلى صاحبنا وعرض عليه أن يشترى منه فى صحف شركة الإعلانات الشرقية مساحات إعلانية بثلاثين ألف جنيه مقابل ثلاجات ، وطلب خصما قدره ٣٠ ٪ لأن الإعلانات ستنشر فى أشهر الصيف ، ثم ذهب إلى الأهرام فعرض عليه ثلاثين ألفاً أخرى بنفس الشروط ، واشترى مساحات من باقى الصحف حتى بلغ مجموعها مائة ألف جنيه .

وضجت القاهرة والإسكندرية بنحو خمسين مندوباً من مندوبى الإعلانات فى سياراتهم يبيعون ثلاجات هذا المعلن ، ويؤكدون للناس أنها أحسن ما فى السوق . وكان المعلن قد اتفق مع الشركة على أن

تمنحه عمولة قدرها ٤٠ ٪ وأن تتحمل ١٠ ٪ من ثمن البيع كمساهمة فى الإعلانات ، فطلب من الصحف أن تعطيه فواتير بالقيمة الكاملة قبل الخصم ، وحصلها بالكامل من الشركة . ونجح المعلن فى بيع ثلاجات بمليونى جنيه لا مليون واحد ، أخذ من ثمنها أكثر من النصف . وسخر مندوبى الصحف فى عمل الدعاية لثلاجاته فأصبح سهلا عليه أن يبيعها فى السنوات التالية .

لقد كان المندوبون يتذرعون بكل وسيلة لبيع المساحات الإعلانية ، كان مندوب يستهدى أحد المعلنين ما يبيعه من حلاوة حمصية وسمسمية ليوزعها على عملائه من المعلنين الآخرين فى مولد النبى . وكان آخر يشترى مفكرات فاخرة فى مستهل السنة الميلادية ثم يكتب عليها من الداخل اسم صحيفته بخط رفيع ليزيل عن عملائه حرج تقبلها حين يقدمها لهم كهدايا . وكان ثالث يستقصى أحوال عملائه ، فإذا عرف أن عند أحدهم مريضاً استأذن فى أن يدعو له طبيباً صديقاً مع أنه سيدفع له الأتعاب فيما بعد . وقد روى أحد المندوبين لصاحبنا أنه حاول غير مرة مقابلة أحد المعلنين فلم تمكنه السكرتيرة من ذلك ، وكانت نزيهة فلم يستطع أن يرشوها ، ولكنه لاحظ أنها عانس كبيرة السن ، فتودد إليها وغازلها فهيأت له عند المدير ما أراد .

ويذكر صاحبنا أنه كان يدفع لسكرتير أحد الباشوات من كبار رجال الأعمال نسبة صغيرة من إعلانات الباشا مقابل أن يحصل لصحفه على نصيب الأسد منها . وفى يوم طلب منه السكرتير أن يشكوه للباشا على سبيل التعمية ففعل ذلك ، وطلب الباشا سكرتيره على الفور ، فعنفه ، وألح عليه أمام صاحبنا أن يكون دائماً فى خدمة المصرى . وأنشأ السكرتير يشكو من معاملة مدير المصرى ، ويقول إنه لم يفلح فى كسب مودته برغم تفانيه فى خدمته . وانصرف صاحبنا فخرج معه السكرتير يودعه ويشكره على هذه التمثيلية ويهنئه على إجادة التمثيل .

وبعد يوم سأله صاحبنا عن رد الفعل عند الباشا بعد الزيارة فقال إنه طلبه بعد قليل وأفهمه ألا يعبأ بما سبق أن قاله له ، فهو مجاملة لصاحبنا ، وعليه أن يسير فى طريقه كما يرى !

وقد كان هذا الباشا يشطب كسور الألوف من الجنيهات من فواتير الإعلانات ، فكانت الصحف تزيد أسعارها ليبقى حقها كاملا بعد الشطب . واستمرت فى زيادة أسعارها حتى أصبح الباقى يزيد كثيراً على المستحق ، وفى يوم جاء مندوب شركة الإعلانات لدى الباشا إلى صاحبنا يعرض نزوله عن عمولته مقابل ما يزيد على حق شركة الإعلانات الشرقية بمقتضى التسعيرة ، فلم يتردد صاحبنا فى الرفض !

وكان هذا الباشا رئيساً لأحد الأندية الرياضية ومغرماً بكرة القدم إلى حد بعيد ، فكان المندوبون يتوددون إليه عن طريق التحزب لهذا النادى ضد ناد آخر ، وكانوا يبتعدون عنه إذا انهزم النادى ، لأنه يكون فى حالة نفسية سيئة ، ويقبلون عليه حين ينتصر النادى ، فيدفع لهم قيمة الفواتير كاملة .

وكان هذا الباشا على خلاف مع وزير من وزراء التموين فى وزارة الوفد ، بشأن تسعيرة السكر ، فأراد الوزير أن ينشر بياناً فى الصحف للتشهير به ، فاعتذرت الأهرام عن نشره رعاية للباشا ، وقبلته « المصرى » بحكم كونها لسان حال الوفد ، فانتهز صاحبنا الفرصة وأعطى الباشا صورة من البيان ليرد عليه فى اليوم نفسه ، وتمكن بذلك من تحصيل عشرة آلاف جنيه كانت على الباشا ثمن إعلانات . وثار الوزير ، وأراد أن يمنع الرد ، وانضم له رئيس التحرير ، ولكن صاحبنا تذرع بحرية النشر فكان له ما أراد .

وقد كان أحد المعلنين فخوراً بثرائه العريض ، يصرح بأنه يحترم الشخص بمقدار ما يستطيع الإمضاء عليه من أصفار إلى يمين الواحد الصحيح . عرف المندوبون ذلك فكانوا يبالغون فى هذا الثراء ليورطوه

فى الإعلانات . وقد كان عليه يوماً ثلاثة آلاف جنيه لأخبار اليوم ، فطلبه صاحبنا بالتليفون وقال : « يا صديقى إذا لم تدفع فسأثقل عليك بالزيارة فتضطر لاستقبالى وإضاعة خمس دقائق من وقتك الثمين ، والناس يعرفون أن دقيقتك بألف جنيه ، فتكون الخاسر فى النهاية..» وضحك فى اعتزاز ثم استدعى رئيس حساباته وأمره بإعداد الشيك .

وكان معلن آخر مغرماً بالقهوة السادة ، يسخر من عملائه الذين يطلبون « سكر زيادة » ويقول إنهم أطفال أولى بهم أن يشربوا « شربات » فكان المندوب يتحرى أن يطلب فنجان قهوة « سادة بن محروق » ، ليدخل السرور على عميله .

ويذكر صاحبنا أن مندوباً كان قد تناول عشاءه فى منزله ، فلما خرج التقى بأحد المعلنين الكبار ، وكان يحاول عبثاً مقابلته فى مكتبه ، فدعاه المعلن للعشاء ، ووعده بإمضاء العقد ، فلم يتردد المندوب فى قبول الدعوة ، وتعشى للمرة الثانية. ثم عاد إلى منزله وفى يده عقد وفى معدته اضطراب !

هكذا كان حال الإعلان فى الأربعينات ، فهل حاله الآن أحسن ؟

إن صاحبنا لم يقدم الجوانب المضيئة من الإعلان فى العهد الماضى ، مع أن الإعلان قدم خدمات كثيرة للنظام الاقتصادى الذى كان قائماً ، وهو يقدم اليوم خدمات أكبر للنظام الاشتراكى ، ولكن بعض الكتاب الاشتراكيين ينادون بإلغائه كوسيلة للبيع لأنه يؤثر فى حرية الصحف فى النقد .

وصاحبنا يرى أن الإعلان إذا كان يتملق المعلن ليزيد حصيلة الإعلانات فإن التحرير قد يتملق القارئ ليزيد حصيلة التوزيع ، والخطأ فى الحالتين فى التطبيق لا فى المبدأ ، وإذا كان التحرير هو أخبار السياسة والاجتماع فإن الإعلان هو أخبار السلع والخدمات ، والجمهور فى حاجة إليهما جميعاً .

إن صاحبنا كتب فى جريدة المصرى فى الأربعينات يدعو إلى إنشاء اتحاد للإعلان يجمع المعلنين والناشرين ووكالات الإعلان ، ويعمل على تقنين الإعلان . وقد تمكن أخيراً من إنشاء المركز العربى للبحوث والإدارة (اراك) لجعل البحث والاستقصاء أساساً للتسويق ، فنجح فى هذا نجاحاً ملحوظاً .

وصاحبنا إلى هذا يعتقد أن الإعلان هو فن التعريف ، والتعريف ضرورى فى النظام الاشتراكى ضرورته فى النظام الرأسمالى .

أمخطئ هو فى هذا الاعتقاد أو مصيب ؟ من يدرى !



١٩٤٢ -



هذه هى المرة الأولى التى يعمل فيها صاحبنا خارج القاهرة نقل زملاؤه جميعاً إلى الأرياف بعض الوقت ، وبقى هو فى مدرسة التجارة بالظاهر حتى سافر منها إلى إنجلترا ، ثم عاد من لندن إلى معهد التجارة العالى بالقاهرة . ذلك أنه كان يعمل فى لجان التخطيط فيقوم بإعداد محاضرها وتقاريرها ، وكانت مراقبة التعليم التجارى تؤثر الاحتفاظ به قريباً منها لهذا الغرض .

وها هو ذا يسافر إلى الإسكندرية للبحث عن مسكن يناسب مركزه الجديد ، فقد أصبح مدرساً فى جامعة فاروق ، والمدرس فى الجامعات يحمل عند النداء عليه لقب أستاذ ، والأستاذ يحمل فى الحديث لقب دكتور . صحيح أن المرتب ثلاثة وعشرون جنيهاً تخصم منها الضرائب فيبقى عشرون ، ولكن المركز الأدبى فى الهيئة الاجتماعية كبير ، والسلطة التى فى يد المدرس تطوع له أن ينجح طالباً ويسقط آخر دون أن يكون عليه رقيب إلا ضميره . وقد انتهى عهد المفتشين الذين يزورونه فيكتبون التقارير عنه ، أصبح سيد نفسه يقول فى إدارة الأعمال ما يشاء ، ويبدى رأيه الشخصى فى نظريات العلماء وتجارب الأولين . وإذا كان الناس يقيسون أموالهم فى البورصات فإنهم يقيسون معارفهم فى الجامعات . وصاحبنا لا يستطيع المكاثرة بماله ، فليكاثر بمكانته العلمية. إن فى إمكانه أن يقترض مجلداً باللغة الإنجليزية من مكتبة الكلية ، ثم يمضى به إلى ترام الرمل ، فإذا الراكبون جميعاً ينظرون إليه فى احترام !

وفيما هو يفكر فى ذلك جاءه مندوب الجامعة يطلب ستة جنيهات . قال لماذا ؟ قال المندوب : إن حفل الافتتاح قريب ، وقد أعدت الجامعة « أروابا » لأعضاء هيئة التدريس يتكلف الواحد ضعف هذا المبلغ ، فدفعه متأففاً لأنه يرهق دخله ، ودفعه سعيداً لأنه يجسد أحلامه .

وتوالت حفلات الافتتاح ، فحضر الملك فاروق الحفل الكبير ، ثم أقيم آخر حضره النحاس باشا والوزراء ، ووقف فيه طه حسين مرحباً بوصفه مدير الجامعة فقال :

« سيدى الرئيس

« هذه الجامعة لما تبلغ من العمر سنة واحدة ، فهى أصغر من أن تقوم بشكرك ، ولذلك أقوم عنها بهذا الشكر . وأنا أعرف أنك تكره الثناء ، ولكنى أحب أن أتحدى السلطان ، فأشكرك بالرغم منك لأنك أنشأت هذه الجامعة ، ولم تتركها لوزير المالية . إن مهمة وزراء المالية فى جميع العهود أن يقولوا : (لا) ولكن وزير المالية لم يستطع أن يقولها هذه المرة » .

وكانت كلية التجارة فى « سراى » عمر طوسون بالمحمودية ، وهى « سراى » مهجورة منذ سنين ، والثعابين تمرح فيها بوضع اليد ، فترى فى دخول الآدميين اعتداء يستحق المعاقبة بالسم ، ولذلك كان الأساتذة يتلفتون وهم يسيرون ، ويجزعون لأى شىء ناعم ، فقد يكون ثعباناً .

وعجزت إدارة الجامعة عن مقاومة الثعابين ، فاقترح عليها صاحبنا — وهو من الشرقية — أن تستقدم شيخاً من الرفاعية ليستخدم نفوذه الروحى فى مكافحتهم ، ولكن مسئولا فى الجامعة سخر من هذا الاقتراح أمام الأساتذة ، وقال إنه لا يضن بالتكاليف ، وهو يعرف أنها يسيرة ولكنه يضن بسمعة الجامعة أن تلجأ للشعوذة ولدى أساتذتها من وسائل العلم ما هو أولى بالتطبيق .

ولكن الثعابين استمرت تسخر من علم الجامعيين وتهاجم طلاب

الجامعة ، فلم يجد المسئول فى النهاية بداً من أن يجرب شيخ الرفاعيين وجاء الرجل فوقف على مرتفع صغير ، وبدأ يدير فى فمه بعض التعاويذ ، ثم يرسل فحيحاً خاصاً فإذا الثعابين تأتى بسرعة إليه . وكان الثعبان يرفع رأسه ، فيتناوله الشيخ بيده ، ويضغط على رقبته ، فيفتح فمه ، ويخلع الشيخ أسنانه ، ثم يضعه فى قفة معه . وتجمع فى القفة أكثر من عشرين ثعباناً جاء يعدها للمسئول ليتقاضى عن كل منها خمسة وعشرين قرشاً .

واستدار الأساتذة فى حلقات بعد ما شهدوه . قال بعضهم إن الشيخ من ذوى الكرامات ، وقال آخرون : « كلا ، فى الفحيح الذى يرسله نداء يستجيب له الثعبان ! » ، ولكنهم انتهوا جميعاً إلى أن الباحث لا يصح أن يستمد المعرفة من علمه فقط ، وإنما يستمدها من جهله كذلك . وانتهز صاحبنا فرصة هذا الحديث فأراد أن يعيد لنفسه اعتبارها فقال : « لو ذكر طالب فى العام الماضى أن الذرة تتفتت لأعطيناه صفراً ، ولكن الأمريكيين فتتوا الذرة . وهاهم أولاء يستخدمون القنبلة الذرية فى هيروشيما » .

وانصرف صاحبنا لعمله ، فأكب على قراءة المراجع فى إدارة الأعمال . وساعده على التفرغ أن لم يكن له ولا لزوجته صلات فى الإسكندرية . كانت التسلية الوحيدة لهما أن يمشيا على « الكورنيش » حتى ميدان الرمل ذهاباً وجيئة لا تقطعهما إلا جلسة قصيرة فى مقهى يتناولان فيه مشروباً خفيفاً .

وفرضت ظروف العيش على صاحبنا أن يبحث عن عمل إضافى يدر عليه بعض الدخل ، فصار يكتب مقالا شهرياً فى مجلة « الغرفة التجارية » تنقده عنه جنيهاً واحداً . ثم رأى إعلاناً فى الأهرام عن حاجة أحد المكاتب الأجنبية إلى مترجم يجيد اللغتين الإنجليزية والعربية ، فتقدم للوظيفة وأصبح يملأ حقيبته كل يوم بالرسائل الإنجليزية وهو فى

طريقه إلى المنزل فيترجمها إلى العربية ويعد لها الرد بالإنجليزية، ثم يعود فى الصباح فيقدم ما أعده للمكتب . وكان يتقاضى عن ذلك خمسة جنيهات فى الشهر .

ومن خلال هذا العمل تعرف بأحد الموظفين من الأجانب ، كان يريد تعلم اللغة العربية ويبحث عن زميل يعلمه إياها مقابل تعلم الفرنسية، فراقت الفكرة صاحبنا ، وعرض أن يكون هذا الزميل .

كان الاثنان يسيران على « الكورنيش »، فيحاول الأجنبي أن يعبر عن نفسه بالعربية ، ويحاول صاحبنا أن يرد عليه بالفرنسية ، وكانا يلقيان فى التعبير عناء كبيراً ، ولكن تعاونهما أثمر ، فالتقط كل من أخيه كثيراً من الكلمات والتعابير ، حتى أصبح يسيراً عليه أن يدير حديثاً باللغة الجديدة .

كان صاحبنا يود أن يقضى وقته فى العلم وحده ، ولكنه اكتشف أنه بشر أولا وأستاذ ثانياً . لابد أن يجد حاجته من الطعام والكساء لكى يتسنى له أن يتذوق معنى العلم . ولذلك جعل يستعجل عميده لكى يحصل له على الدرجة الرابعة ، فهى ترفع مرتبه إلى خمسة وثلاثين جنيهاً مرة واحدة . ولما طال انتظاره طلب موعداً من مدير الجامعة .

قال لطه حسين : إننى أشغل وظيفة مدرس (أ) ولا أشغل درجتها .

فرد عليه قائلا : « عميدك هو الذى ظلمك لأنه لم يتقدم بترقيتك فى الوقت المناسب » .

— أنا لا أحب أن أنسب الظلم لعميدى فقد كان أستاذى .

— إذن من الذى ظلمك . أنا ؟

— لا . إنه حظى .

— إذن (اشكه للزمان) .

— وسعادتك ملك الزمان .

فضحك طه حسين وعد بإنصافه .

وفى أول جلسة لمجلس الجامعة ، كان أحد العمداء متقدماً بطلب فرقية لمدرس عنده، ورأى طه حسين أن صاحبنا أكثر استحقاقاً منه ، تطلب من عميد كلية التجارة أن يقدم طلباً بترقية صاحبنا ، وأخذ عليه موافقة المجلس .

وهكذا كان طه حسين فى عمله لا يخضع للروتين الحكومى ، ولكنه يفكر بعقل طليق ، فإذا اقتنع بشيء أقره ، ولو جاء مخالفاً للوائح . وكان مديرو المستخدمين والمخازن ورؤساء الحسابات يلقون من هذا عناء كبيراً، لأنه يحطم قواعدهم ، ويكاد يعرضهم للمسئولية ، لولا أن طه حسين يترك لهم أن يسطروا على الورق اعتراضهم ، ثم يذيل ما كتبوه بكلمة « ولو » ويمضى .

كان طه حسين يدافع دائماً عن المنصب الذى يشغله . فلما كان عميداً لكلية الآداب كان السكرتير العام للجامعة فى نظره « كبير الكتاب » . ولما تولى إدارة جامعة الإسكندرية كان القول قوله حتى إن أحد العمداء احتج فى مجلس الجامعة على أمر يخص كليته ، فقال له طه حسين : « إذا كنت غير مقتنع بهذا الأمر ففى وسعك أن تستقيل من العمادة » ، قال العميد : إذن أقدم استقالتى منها ، قال طه حسين : « واستقالتك مقبولة من الآن » . وهكذا دخل الرجل مجلس الجامعة عميداً وخرج منه مجرد أستاذ .

وقد استقل طه حسين بإدارة الجامعة فلم يكن يرجع فى شيء من شئونها إلى وزير المعارف، ولكنه حين أصبح وزيراً للمعارف سيطر على مديرى الجامعات، فأصبحوا يرجعون إليه فى كل شيء .

وكان صاحبنا يعرف مع زملائه فى طه حسين قوة الشكيمة ، حتى إن أحدهم ، وكان قريباً لأحد الوزراء ، جاء إلى صاحبنا يقول إنه قدم طلباً إلى إدارة الجامعة بإمضاء « أستاذ القسم » ، وكان فى الحقيقة أستاذاً مساعداً ، فرد عليه طه حسين بخطاب يقول فيه :

« إن هذا احتيال لا يليق بالعلماء » ، وإن الزميل قد أعد خطاباً إلى مدير الجامعة يقول فيه : « إن هذا القول جاف أرفضه وأحتج عليه» فقال له صاحبنا : « لو كتبت هذا فسيكون لطه حسين معك شأن». ونصحه أن يغير الصيغة لتصبح « إن هذا القول ماس لا أستطيع أن أقبله » قال : « وما الفرق ؟ » قال صاحبنا : « إن كلمة جاف تنصرف إلى مدير الجامعة ولكن كلمة ماس تنصرف إليك ، والرفض كلمة إيجابية ، أما عدم القبول فهو سلبي »! فاقتنع الزميل بالتغيير ، وتقبل طه حسين خطاب الزميل بصدر رحب ، بل استدعاه وطيب خاطره بعد أن وعد بالتقيد بلقبه العلمي الصحيح .

كان طه حسين يقضي فى كل شئون الجامعة دون الرجوع إلى « نجيب الهلالى » وزير المعارف . فلما سقطت وزارة النحاس وجاءت وزارة أحمد ماهر استقال طه حسين ، وجاء « صادق جوهر » . وكان رجلا إدارياً ، فلما رأى صاحبنا يعمل فى جريدة المصرى مع عمله فى الجامعة أرسل له خطاباً يحاسبه ، وكان صاحبنا قد أبرم عقداً مع صاحب المصرى وصاحبي أخبار اليوم يوافق فيه على أن يستقيل من الجامعة ليتولى إدارة شركة الأخبار المصرية . وهى التى تضم المصرى وأخبار اليوم وآخر ساعة . وكانت أخبار اليوم قد سعت له عند « عبد الرحمن البيلى » وزير المالية ليوافق على إحالته إلى المعاش — ولم تكن مدة خدمته قد جاوزت سبعة عشر عاماً — فطلب الوزير ملف الخدمة من الجامعة دون علم مديرها ، واستدعى « عبد الشافى عبد المتعال » رئيس اللجنة المالية ليجمعها على الورق ، ويقدم له قرارها بالموافقة . وبعد يومين اثنين عرض الوزير الأمر على مجلس الوزراء فأقره دون أن يكون مدير الجامعة فى الصورة ، ورد صاحبنا على خطابه لينبئه بأنه ترك الجامعة ، وأنه يرجو لها فى عهده كل تقدم وازدهار ! وأدرك « صادق جوهر » أن صاحبنا لا بد أن يكون من ذوى النفوذ ، فسعى إليه فى كلية التجارة

مودعاً ومبدياً أسفه على حرمان الجامعة من خدماته . ثم استدعى مدير المستخدمين ليلومه على إرسال الملف لوزير المالية دون الرجوع إليه ، فأفهمه هذا أن « السراى » كانت وراء الموضوع ، وكان هذا كافياً .

لقد كان صاحبنا يتقاضى من الجامعة خمسة وثلاثين جنيهاً فى الشهر ، فأصبح يتقاضى من الصحافة مائة وخمسين . وبعد أن كان يشترى الدجاجة فيشرحها تشريحاً ليتناول مع أسرته نصفها فى يوم ونصفها فى اليوم التالى ، وبعد أن كان يشترى بلحاً بانتظام حتى ينتهى موسم البلح ، ثم يأخذ يشترى الجوافة حتى ينتهى موسمها ، وهكذا يأكل الشىء نفسه من خضر وفاكهة يوماً بعد يوم ليدفع فى الطعام أقل الأسعار ... بعد أن كان يفعل هذا ، نقل مسكنه من العباسية إلى الزمالك ، ونقل أولاده من المدارس الأميرية إلى المدارس الخاصة ، وأصبح يتنقل فى سيارته الخاصة بدل الترام ، ويقيم الولائم فى منزله للمتعاملين معه من أصحاب الأعمال .

على أن صاحبنا لم يترك الجو الجامعى ، فقد ظل يقيس قدرته الشرائية فى بورصة الأوراق المالية ويقيس ثروته العلمية فى بورصة الجامعة . وظل يحاضر فى الدراسات العليا بجامعة القاهرة ، ويشترك فى مجالس كليات التجارة ولجان الجامعة ، ويشرف على بعض رسائل الماجستير والدكتوراه .

ويذكر صاحبنا أنه اشترك فى اللجنة التى وضعت برامج كلية الإدارة والمعاملات بجامعة الأزهر ، وكان أحد الشيوخ عضواً فى اللجنة ، فاشترط أن تنبعث البرامج كلها من القرآن ، فيقول المحاضر : « وأذّن فى الناس بالحج » ، أى أعلن لهم ، ثم يتكلم عن الإعلان ، ويقول : « يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه » ، ثم يتكلم عن السندات الإذنية ، واشتد الضيق بأحد العمداء فى اللجنة فقال مستطرداً : « والنفاثات فى العقد » ثم يتكلم عن الطائرات النفاثة !

فثار الشيخ لهذا التعليق الساخر ، ووقف يعلن انسحابه من اللجنة ، ولكن صاحبنا تدارك الموقف – وهو محسوب على أهل الدين لأن والده منهم – فقال إنه لا يأتمن الأساتذة التجاريين على الدين ، وإنما يأتمن الشيوخ وحدهم عليه ، ولذلك يقترح أن تسير الدراسات التجارية والدراسات الدينية فى اتجاهين متوازيين ، فيدخل الأستاذ التجارى ليتحدث عما هو كائن ، ويدخل الأستاذ الشيخ ليتحدث عما يجب أن يكون . وهكذا انحلت العقدة واعتمدت البرامج .

وخرج صاحبنا من الاجتماع كارهاً تزمت الشيوخ وعدوان المحدثين. فليس من حق الشيوخ فى رأيه أن يفسروا : « وما فرطنا فى الكتاب من شىء » على أن الآية تعنى العلم بفروعه المختلفة ، فالواقع أن الدين قد نزل لتقنين العبادات والمعاملات، ولذلك يتلقاه الناس بقلوبهم. وليس من حق المحدثين أن يقصروا أفهامهم على عقولهم ، فالعقول لا تحكم إلا بما تعلم ، والله يقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . إن الدين أهداف والعلم وسائل ، وليس بينهما تنابذ ، فالدين يقول : « اطلبوا العلم ولو فى الصين » ، والعلم يكتشف فى كل يوم أنه ليس فى حرب مع الدين .

لذلك فرح صاحبنا لقيام جامعة الأزهر ، وإن كان لم يفهم علة فصل البنات عن البنين فى الكليات . إن الجنسين يختلطان فى الطرقات والمتاجر والنوادى وسائر الجامعات . فلماذا لا ينفصلان إلا فى جامعة الأزهر ومركز الشبان المسلمين؟ فى الجو النظيف ينفصلان، وحيث لا رقابة يجوز الاختلاط !

إن صاحبنا طلب يوماً من أحد شيوخ الجامعة أن يحاضر أعضاء الروتارى بفندق هيلتون فى شهر رمضان ، فرفض الدعوة ، لأنه يعتقد أن أعضاء النادى من المتفرنجين، وأن الفندق يقدم الخمر لرواده ! قال صاحبنا للشيخ : إن هذا – لو صح – يكون أدعى لإسماعهم كلمة

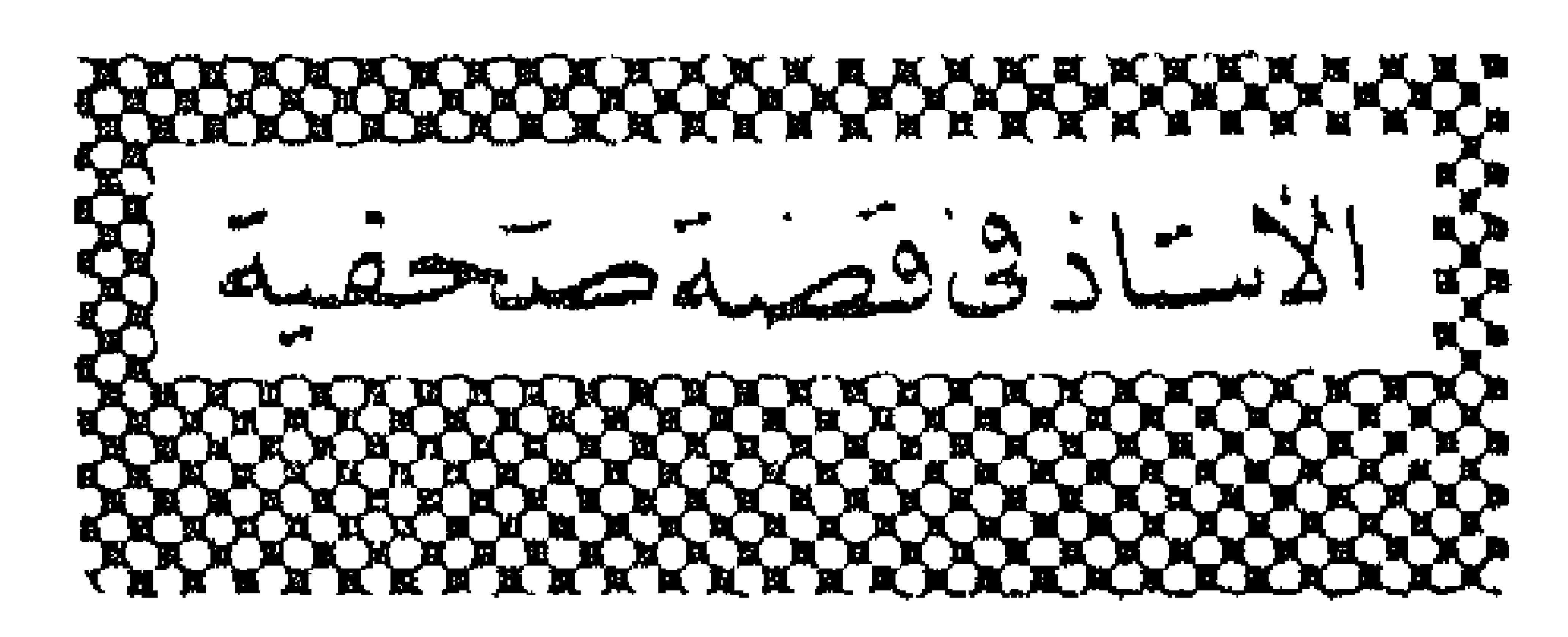
الدين ، فأصر على أن يتشبه بالدجاجة التى ترقد على بيضها ، وأن يقصر إرشاده على منابر المساجد .. المساجد التى يؤمها المهتدون !

وكان صاحبنا يتأمل سير الجامعات الأخرى ، فيجدها كثيرة التغيير فى مناهجها ، كأنما المناهج هى المسئولة عن انخفاض مستوى المتخرجين فيها. إن صاحبنا يشهد بأن البرامج المصرية لا تقل على الورق عن نظائرها فى الجامعات الأوربية والأمريكية . ولكن العيب كامن فى إيصال ما فى هذه البرامج إلى أذهان الطلاب ! إن الأستاذ يحاضر بضع مئات منهم ، فلا يستطيع أن يتفاعل معهم بما يؤثر فى سلوكهم الذهنى . والطلاب لا يستطيعون متابعة المراجع الأجنبية لضعف مستواهم فى اللغات ، فلم يبق أمامهم إلا كتاب الأستاذ ومذكراته . وقد رأى صاحبنا أن الكليات النظرية أمعنت فى التخصص ، فكلية التجارة بها أقسام منفصلة للمحاسبة وإدارة الأعمال والاقتصاد ، وكلية الآداب بها أقسام منفصلة للاجتماع والتاريخ والجغرافيا والصحافة ، وكلية الاقتصاد بها قسم للاقتصاد وقسم للعلوم السياسية . وقد دعاه هذا إلى أن يستقصى مدى الترابط بين الوظائف التى يعمل فيها الخريجون والأقسام التى تخرجوا منها ، فإذا هو يكتشف أمراً خطيراً هو أن كثيرين ممن يعملون فى المحاسبة هم من قسم إدارة الأعمال ، وكثيرين من رجال البيع والعاملين فى شئون الأفراد هم من أقسام المحاسبة ، بل إن من العاملين فى الوظائف التجارية كثيرين من خريجى الحقوق والآداب ، ومن العاملين فى التدريس كثيرين من خريجى كليات التجارة ، كما أن المحامين يقبلون القضايا من كل نوع . لم كان كل هذا التخصص إذن ؟ أليس من الأفضل أن يكون التخصص فى الدراسات العليا ، وأن تكون الدراسات فى مرحلة البكالوريوس عامة شاملة ؟ ويل للطلاب من المتخصصين ! إن أستاذ المحاسبة يريد أن يجعل من كلية التجارة كلية للمحاسبة ، وأستاذ إدارة الأعمال يريد أن يجعل منها كلية للإدارة

والمعاملات ، وهكذا يمعن كل منهم فى ملء أذهان الطلاب بما يراه ضروريًا ، وهو فى الحقيقة تزيد .

إن المطلوب فى الجامعة هو تكوين طالب يفكر ويعبر ويعمل . وعن طريق التفكير والتعبير والعمل يغترف من الحياة ما يزيد معلوماته .

هكذا يعتقد صاحبنا ، ولكن لعل رجل الأعمال قد تغلب فيه على رجل الجامعة .



- ١٩٤٣ -

كان صاحبنا فى بيته يطالع ، فإذا رجل يدق الجرس . وخرج يستوضح الأمر فإذا الرجل رسول من صاحب « المصرى » ينقل رغبته فى أن يلقى صاحبنا على الفور . وكان الوفد فى الحكم ، فكبر على أستاذ الجامعة أن يستدعى على هذا النحو ، فاعتذر بمشاغله وأصر على أن يكون اللقاء فى اليوم التالى . وفى الموعد قابل صاحب المصرى ، فعرض هذا عليه أن يتولى تنظيم جريدته من النواحى الإدارية ، فقبل المهمة على أن يقوم بها فى الإجازة الصيفية .

وفى منتصف يونيو سنة ١٩٤٣ كان صاحب المصرى يجلس فى مكتبه بشارع ضريح سعد منصتاً لمن حوله ، وكان الإنصات هو عمله الوحيد . أذناه تتجاوبان معهم وعيناه تتشاغلان عنهم. وبين دقيقة وأخرى يرفع بصره فى وجوههم ، فكأنما يبعث من عينيه أشعة نفاذة تكشف ما فى نفوسهم . وقد يتصدق ببعض كلمات فى أثناء الحديث فلا يرسلها إرسالا ، وإنما ينبس ببضع مقاطع لا تحدد اتجاهه ، وإنما تخلق جواً من الموافقة أو من الاختلاف .

ودخل صاحبنا فإذا صاحب المصرى يرحب به ، ويقبل عليه إقبالا فهم منه الحاضرون أن بقاءهم لم يعد له محل ، فاستأذنوا منصرفين وخلا المكتب للاثنين .

قال صاحب المصرى : « هل عندك مانع من مبدأ فى أن تكون وفدياً ؟ » قال : « لا . ولكن طبيعتى تنفر من الحزبية بصفة عامة » . قال صاحب المصرى : « أليس لك رأى محدود فى سياسة البلد ؟ »

قال : « إننى أبدى رأيى فى الشئون العامة ، ولكننى لا أحترف السياسة » .
قال صاحب المصرى : « ولكن السياسة هى السبيل لخدمة الوطن » .
قال : « أعرف ذلك ، ولكننى أخدم وطنى بعملى ، فالسياسيون كثيرون والفنيون قليلون ، وأنا أحب أن أبقى واحداً من القلائل » .
فلم يعترض صاحب المصرى على هذا الرأى ، بل أبدى استحسانه له ، ودعا صاحبنا للغداء معه فى اليوم التالى .

وعلى المائدة شرح له مهمته الأولى . قال : إنه على خلاف مع شركة الإعلانات الشرقية ، فهى تحتكر إعلانات المصرى مقابل ثلثمائة جنيه فى الشهر ، وهو يريد رفعها إلى أربعمائة ، ولكنها ترفض. ويشجعها على الرفض أنه لا يستطيع إنشاء إدارة لبيع المساحات الإعلانية ، وطلب من صاحبنا أن يسعى إلى رفع المبلغ أو أن يعمل للاستقلال بإعلانات المصرى عن الشركة .

ودرات بين صاحبنا والشركة مفاوضات شاقة نجحت فى النهاية بفضل تقدير مديريها له منذ كان يحاضرهم فى الإعلان ، وتأكدهم بسبب ذلك من أنه يعرف كيف ينشئ إدارة للإعلانات . وفى ضوء الأرقام أمكن زيادة المبلغ من ثلثمائة إلى سبعمائة جنيه ، فكان نجاحاً رفع أسهم صاحبنا فى الجريدة .

وكان للجريدة عند سلطات الاحتلال البريطانية أربعمائة طن من ورق الصحف سبق أن أقرضتها إياها ، ولم ينجح صاحب المصرى فى استردادها ، فطلب من صاحبنا أن يقوم بهذه المهمة . وذهب للسفارة البريطانية يطلب مقابلة المسئول ، فإذا سكرتيره من زملاء الدراسة . لقد كان طالباً معه فى دراسة الإعلان بلندن ، وتصافحا فى حرارة ، ثم سأله السكرتير عن طلبه ، فلما عرفه استجاب له على الفور ، وجاء الورق للجريدة فزادت أسهم صاحبنا ارتفاعاً .

ولم يكن لدى الجريدة فى أعقاب الحرب إطارات للسيارات ،

فطلب صاحب المصرى من صاحبنا أن يسعى للحصول على إذن بأربعة ، وذهب إلى وزارة التموين يطلب مقابلة رئيس لجنة التوزيع ، فإذا هو أحد أنسبائه ، وإذا هو يجد القواعد لا تسمح بصرف الإطارات ، ولكنها تسمح بصرف سيارتين كاملتين من سيارات النقل ، وعاد صاحبنا بالإذن ، فارتفعت أسهمه إلى السماء .

سلسلة من الانتصارات لعب الحظ فيها دوره . وتمت كلها فى أشهر الصيف الثلاثة ، يضاف إليها أن إدارة الجريدة بدأ فيها روح جديد من التنظيم ، وتوزيع الاختصاصات ، فاعتزم صاحب المصرى فى نفسه أمراً . .

وجاءه صاحبنا يستأذن فى السفر إلى الإسكندرية بعد انتهاء مهمته ففاجأه صاحب المصرى قائلا : « أنا أحب أن نستمر فى العمل معاً » . وأطرق صاحبنا قليلا يفكر ثم قال : « وأنا أرحب بذلك ، ولكننى لا أريد أن أترك الجامعة » . قال « لك ذلك فمن الممكن أن أحصل لك على ترخيص منها بأعمال الخبرة فى غير أوقات العمل » ووعد بالتحدث فى ذلك إلى مدير الجامعة .

وذهب صاحبنا إلى طه حسين يسأله : « هل تحدث إليكم صاحب المصرى فى شأن الترخيص لى بالعمل معه كخبير؟ » قال : لا « ولكنه كلم نجيب (يقصد نجيب الهلالى وزير المعارف)، ونجيب كلمنى ، فقلت له : لا » . قال صاحبنا : « ثم ماذا ؟ » قال المدير : « هذا هو كل ما حدث » . فقال صاحبنا : « إذن فأنا آسف لأننى أضعت وقتكم . لقد ظننت أنكم موافقون » . قال : « ياسيدى أنا حريص على أن أغضب صاحب المصرى ، فإنه يجمع المال من جريدته ثم لايزكى عنه بالإنفاق على الثقافة العامة » . قال صاحبنا : « وهل الصحافة إلا تثقيف ؟ » .قال : « كلا ، إنها تجارة فيها يسلى الناس ولا ينفعهم » . قال صاحبنا : « يا دكتور إن عملى خارج الجامعة

يتيح لى تطبيق ما ألقيه على تلاميذى من نظر » . فقبل منه ذلك وسمح له بالعمل . وأصبح لصاحبنا مرتب من جريدة المصرى يبلغ ثلاثة أضعاف مرتبه من الجامعة، ولذلك كان يقضى الأسبوع بين القاهرة والإسكندرية.

كان توزيع الجريدة يدور حول عشرة آلاف نسخة فى اليوم ، وكان توزيع الأهرام يدور حول مائة ألف . وقد أغرى هذا مدير إعلانات الأهرام بأن يرسل خطاباً دورياً للمعلنين يقول فيه إن الجريدة الأولى فى مصر ، وهى الأهرام ، تبيع مائة ألف نسخة . ولا توجد جريدة ثانية . بل لاتوجد جريدة ثالثة . أما الجريدة الرابعة فتبيع عشرة آلاف نسخة . ورأى صاحبنا أن فى هذا التهكم قذفاً واضحاً فى حق المصرى ، فأشار على صاحبه برفع دعوى بطلب التعويض .

واستشار صاحب الأهرام محاميه، فأفتاه بأن المسئولية محققة . ولم يجد بداً من أن يقبل إرسال خطاب دورى يعتذر فيه عن خطابه الأول ، وأن يرسل أصل الخطاب إلى المصرى ، فجعل صاحبنا من هذا الخطاب نقطة الانطلاق فى حقل الإعلانات .

كان بادياً أن توزيع المصرى لا بد أن يرتفع إذا أريد للجريدة أن تنافس الأهرام ، والارتفاع غير ممكن ما دامت مواد الجريدة مقصورة على بضع مقالات تهاجم الأحزاب المعادية للوفد ، وتصف استقبالات النحاس (باشا) ، وعلى مقال أسبوعى عن المسجد الذى قصده فجأة لصلاة الجمعة . واستقبال المصلين له خارج المسجد وداخله .

كان من رأى صاحبنا أن القارئ يبحث عن الأخبار ، وهو يتطلب فيها السبق والصدق ، ولا يمكن أن يثق فى المصرى وهو يقرأ فيه أن عدد الذين حضروا خطاب النحاس (باشا) ثلاثون ألفاً مع أنه كان بينهم وقدرهم بثلاثة آلاف .

وكانت تجربة صاحب المصرى مع الجامعى قد نجحت فى الإدارة ، فاتجه إلى جامعى آخر فى التحرير . وأشار عليه صاحبنا بالدكتور

محمد حسن الزيات المدرس بكلية الآداب ولكن هذا قال إنه ليس وفدياً ، فانتقل الاختيار إلى زميله الدكتور محمد مندور .

وجاء الدكتور مندور فلفت أنظار القراء بمقالاته التحليلية القوية ، ولكنه رأى أن الجريدة تبتعد عن وفديتها ، فأسر بذلك للنحاس (باشا) ، وكانت شخصية لصيقة به حاضرة فنقلت القول لصاحب المصرى ، وساءت العلاقات بين المحرر وصاحب العمل حتى فصله فاستحق تعويضاً كبيراً حكم به القضاء .

وسافر صاحب المصرى إلى أمريكا فاتفق مع صاحبنا على أمر بالغ الخطورة . قال : « إنى طلبت إلى سكرتير التحرير أن يعمل بتوجيهاتك فى أثناء غيابى ، فحاول أن تخفف كثيراً من وفدية الجريدة ، ولكن حذار أن تصطدم بالنحاس (باشا) فيفصلها عن الوفد فتموت » .

وأصبح صاحبنا رئيساً للتحرير من وراء ستار . فقسم التحرير إلى إدارات ، ونظم مواعيد العمل فى كل منها ، فأصبحت الجريدة تصدر مبكرة قبل الأهرام ، بل اشتغل بالصحافة الميدانية ، فأجرى أحاديث مع عدد من الوزراء ظهر فيها الصحفى نداً للوزير يناقشه ويحاسبه ، ثم حقق نصراً صحفياً غير مسبوق . جاءه يوماً موظف بالإدارة فأخبره أن وكيل وزارة المالية قدم تقريراً لرئيس الوزراء يتهم فيه أحد الوزراء باستغلال النفوذ ، وأن « الملك فاروقاً » طلب الاطلاع على هذا التقرير ، وهو معه ، وقال إنه يستطيع الحصول على صورة منه لقاء مائتى جنيه .

كان فاروق يتردد على امرأة بشارع قصر النيل فيتغدى عندها وينام بعد الطعام . وقد أدركت المرأة أهمية التقرير الذى وضعه الملك على منضدة بجانب السرير ، فاتصلت بالموظف — وكانت تعرفه — وعرضت أن تعطيه التقرير نظير مبلغ من المال ليصوره ويعيده قبل أن يصحو الملك من نومه .

وظهر المصرى يوم السبت — وكان ينفرد بالسوق دون الأهرام

فى هذا اليوم من كل أسبوع — وعلى صفحته الأولى صورة زنكوغرافية للتقرير . فاضطرت الوزارة لتقديم استقالتها واتهم وكيل الوزارة بأنه هو الذى أعطى الجريدة التقرير ، فاضطر إلى الاستقالة هو الآخر .

وكان حسين أبو الفتح يقوم بأعباء رياسة التحرير عند غياب صاحب المصرى فى أوربا . فجاءته يوماً برقية من محسن مؤمن مراسل الجريدة فى بغداد يقول فيها إن الملك فيصل — ملك العراق — تقدم لخطبة الأميرة فريال ابنة الملك فاروق ، فنشر حسين أبو الفتح الخبر فى الصفحة الأولى بعنوان « مصاهرة ملكية » . وثار فاروق لنشر الخبر واتصل بمحمود منصور النائب العام طالباً القبض على حسين أبو الفتح . ونفذ النائب العام ما طلب منه دون أن يدرى السبب ، فذهب صاحبنا مع وهيب دوس المحامى إلى مقر التحقيق بباب الخلق فوجدا محضراً لم يتجاوز بضعة أسطر انتهى بحبس المتهم أربعة أيام تحت التحقيق . ودخل وهيب دوس على محمود منصور — وكان زميله فى الدراسة — يسأله عن جلية الأمر . قال محمود منصور إنه لا يدرى ، ولكنه ينوى أن يتصل بكريم ثابت ليعرف منه سبب القبض على حسين أبو الفتح .

وفى المساء جاء وهيب دوس إلى مكتب صاحبنا صاخباً هائجاً وقال : مادمتم تلعبون بالنار هكذا فلماذا تشركونى معكم فى مثل هذه الألاعيب؟ قال صاحبنا مستفهماً : « ماذا ياوهيب بك ؟ » قال : إن كريم ثابت كان قد سافر إلى بغداد ومعه كلبة ملكية لتحمل من كلب ملكى فى بغداد . وقد أراد حسين أبو الفتح أن يشير إلى هذه الواقعة فنشر الخبر بعنوان « مصاهرة ملكية ». فنفى صاحبنا علمه بهذه القصة ، وذهب على الفور إلى النيابة يطلب مقابلة حسين أبو الفتح فى السجن ، فدهش هو الآخر عند سماع القصة .

وأرسل كريم ثابت إلى سفير مصر فى بغداد يطلب التحقيق ، فاستدعى مراسل المصرى يسأله إن كان قد أرسل البرقية ، فأجاب

بالإيجاب ، وقال إنه رأى كريم ثابت فى بغداد بصحبة أحد رجال « السراى » ، فسأل هذا عن سبب مجيئه . قال : « إن هناك مصاهرة ملكية » ، وسارع المراسل إلى مكتب التلغراف فأرسل البرقية إلى القاهرة .

واتصل السفير برجل « السراى » فقال إنه كان يمزح ، ولم يدر بخلده أن المراسل سيأخذ الأمر مأخذ الجد ، ثم يكمل الخبر من عنده .

وهكذا كان صاحبنا يعمل فى جو الإدارة الهادئ ، فأصبح يعمل فى جوّ من التحرير متلاطم الأمواج . . وجاء يوم ...

. . كان عنوان المقال الأسبوعى عن صلاة الجمعة ينشر ببنط ٥٢ على ستة أعمدة ، فلا يبقى فى الصفحة إلا عمود واحد . وكان لدى صاحبنا إعلان على عمودين ، فأمر سكرتير التحرير أن ينشر العنوان على خمسة أعمدة ببنط ٣٦ وكانت الكارثة . .

جاء صاحبنا إلى مكتبه فى الصباح ، فإذا التليفون يدق والعامل يقول : « رفعة النحاس باشا » وألصق صاحبنا السماعة بأذنه ليستمع ، فإذا صوت هائج يصرخ : « أين السيد أبو النجا . أين السيد . . . » فرد صاحبنا « أنا يارفعة الباشا » ، فاستمر الصوت يتدفق : « ياواد فين بقولك ، فين أبو النجا » ورد صاحبنا « أفندم يارفعة الباشا .. أنا أبو النجا » . فقال : « أنت بنط ٣٦ ؟ أنت جابوك منين ؟ تاجر يعمل رئيس تحرير ؟ » وأسرع صاحبنا إلى منزل الزعيم فى جاردن سيتى . .

كان يجلس مع صبرى أبو علم سكرتير الوفد ومع عدد من الشباب ، فلما دخل صاحبنا هاج الزعيم مرة أخرى قائلا : « أنت دسيسة » فقال : « لا ، يا رفعة الباشا . أنا رجل فنى ، انتدبنى صاحب المصرى من كلية التجارة لإصلاح الجريدة ، وأنا أعرف أن صاحب المصرى لا يستطيع أن يخالفكم ، فكيف أخالفكم أنا ؟ » فهدأت ثورته على

الفور ، وربت على كتف صاحبنا قائلا : « إذن أنت أستاذ فى كلية التجارة ! قالوا لى إنك تاجر ! طيب ولماذا جعلت المصرى جريدة محايدة (!) » فعقب صبرى أبو علم قائلا : « ياريت ! إنها جريدة غير محاربة » فضحك النحاس (باشا) قائلا : « ما دامت لم تعلن الحرب بعد فلا بأس » . وتأسف لصاحبنا بأن قبّل رأسه فى عنف ثم دفعه بعيداً فلما أراد صاحبنا أن يستأنف كلامه قال النحاس (باشا) : « لا ، خلاص . أنا صالحتك » وقام يودعه حتى السيارة وأصر على الانتظار حتى انصرف .

وكان فى الجريدة مفتش للتوزيع بعمامة ولحية مصبوغة ، كل مهمته أن يخطب فى المساجد ، فيقول إن الأهرام جريدة مسيحية ، وإن المصرى جريدة مسلمة ، وإن قارئى الأهرام كفار بنص القرآن والسنة ، ثم يشعل النار فى ربطة من الأهرام ، ويدعو المصلين للتهليل والتكبير ، وبقى الأهرام واقفاً كالطود ، وبقى المفتش متعلقاً بأقدامه !

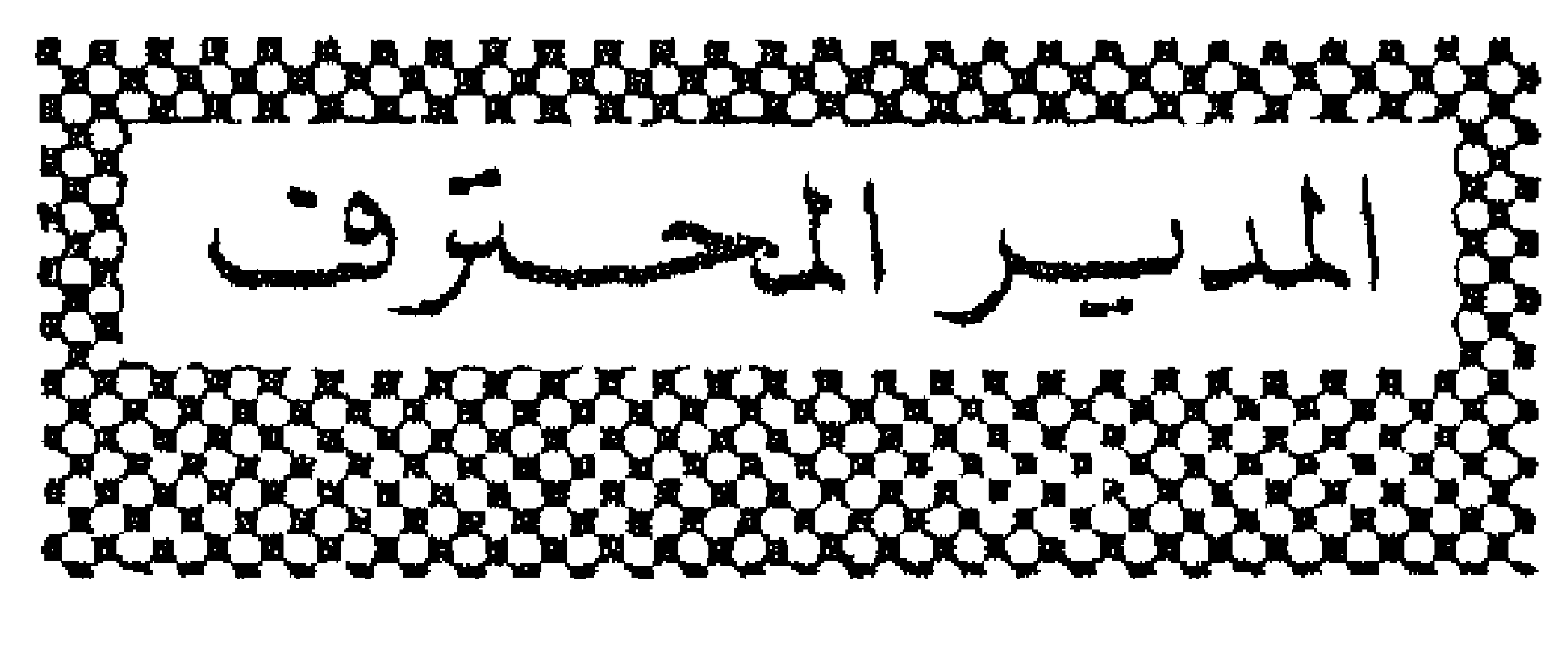
كان أول ما عمله صاحبنا أن طرد هذا المفتش ، وأعطى دار الهلال توزيع المصرى فى مناطق القاهرة والإسكندرية والوجه البحرى ، مقابل أن تعطيه توزيع مجلاتها فى الوجه القبلى . وكان يقصد بذلك أن تكون ممارسة التوزيع فى الوجه القبلى مرحلة أولى تعينه على التوزيع فى جميع المناطق فيما بعد .

ثم رأى صاحبنا أن يستزيد من الأنصار فى مواجهة الأهرام ، فكون شركة للتوزيع بين المصرى وأخبار اليوم ، وبذلك انتزع أخبار اليوم وآخر ساعة من أحضان الأهرام ، وباشر التوزيع فى جميع أنحاء القطر .

وكان انحياز أخبار اليوم للمصرى فى التوزيع عربوناً لصداقة أكبر ، ففى أوائل سنة ١٩٤٦ اندمجت الداران الصحفيتان فى دار واحدة .

وعرض الشركاء على صاحبنا أن يستقيل من عمله الجامعى ، وأن يتولى إدارة الشركة ، فاشترط أن يحال إلى المعاش ، وأخذ أحد الشركاء

هذا الأمر على عاتقه . فسافر إلى الإسكندرية ، وقابل وزير المالية الذى استدعى رئيس اللجنة المالية فعقدها على الورق ، ثم أصدر مجلس الوزراء قراراً فى ظرف يومين بإحالة صاحبنا إلى المعاش .



١٩٤٦ -

ترك صاحبنا عمله فى الجامعة واحترف الإدارة . جعل مكتبه فى عمارة أخبار اليوم ، ومنه تولى إدارة شركة الأخبار المصرية ، وهى التى ضمت دارى المصرى وأخبار اليوم .

كان هناك مسوغ لاندماج الدارين ، فصاحب المصرى ثرى كثير الأسفار ، وقد ضم إلى عمله الصحفى أعمالا تجارية كثيرة ، وصاحبا أخبار اليوم صحفيان بارزان فى سن الشباب ، وهما فى حاجة إلى المال ، فالاندماج يحقق تكاملا مطلوباً من الطرفين ، ولكنه يصطدم بواقع كبير هو أن الدارين متنافرتان فى مبدئهما السياسى ، فواحدة على علاقة طيبة بالوفد ، والأخرى تعمل فى الجبهة الأخرى .

وقد كان فى نية صاحب المصرى أن يجذب أخبار اليوم إليه ، وكان فى نية صاحبى أخبار اليوم أن يبعدا المصرى عن الوفد ، بل إن الجميع أفرغوا نواياهم فى ورقة أمضوها وأودعوها خزانة خاصة فى بنك مصر تعهدوا فيها بأن يتوخوا المصلحة العامة فيما يكتبونه دون ارتباط بسياسة الوفد أو خضوع لرأى إنسان مهما علا قدره !

ولكن النوايا شىء والممارسة شىء آخر ، فقد ظهر لصاحبنا بعد أيام قلائل أن الخلف يربض فى السياسة العليا لأصحاب الشركة ، وأنه يقود عربة إدارية يجرها جوادان متنافران . وقد أعلن هذا الخلاف عن نفسه حين أراد صاحب المصرى أن يعين الأستاذ محمد عبد القادر حمزة محرراً بمرتب يناسب كفايته ، وكان معروفاً بوفديته ، فاعترض الأخوان فى أخبار اليوم بحجة أن المرتب كبير . وكان الاتفاق على أن

تكون الإدارة مشتركة والتحرير مستقلا ، ولكن هل تعيين محرر مسألة إدارية أو تحريرية ؟

ثم اشتد الخلاف حين زاد المصري عدد صفحاته فى يوم السبت ، فاعتبر الأخوان أن فى هذا استنزافاً للورق والمال ، والحقيقة أن فيه منافسة لأخبار اليوم ، فأمرا مهندس المطابع بالامتناع عن طبعه ، وذهب أفراد أسرة المصري إلى المطبعة بالسكاكين للاعتداء على الأخوين إذا خطر لأحدهما أن يدخلها .

وكان صاحب المصري قد اشترى ورقاً للشركة بأكثر من أربعين ألف جنيه حين بدا جلياً أن استمرارها أصبح مستحيلا ، فانفصلت الداران وبدأت المتاعب .

رأى صاحبنا أن يتمهل فى ترك مكتبه حتى يستعيد لصاحب المصري أمواله ، وهو متغيب فى الخارج ، فاستخدم سلطته كمدير فى بيع ورق الشركة المخزون لدى البنك إلى صاحب المصري مقابل دينه عليها ، وكان الورق نادراً ، وسعره فى السوق السوداء عشرة أضعاف سعره الرسمى . فأتم الصفقة وودع الأخوين ، ثم عاد إلى مكتبه القديم .

وفى الصباح أرسلت إدارة الحسابات تطلب ورقاً لأخبار اليوم ، فجاءها الرد من البنك بأن مدير الشركة قد نقل ملكية الورق كله ، وكان رد الفعل أن شد الأخوان عروق الأرض لتبتلعه ، وهزا أعمدة السماء لتهبط عليه . اتهماه بالتزوير ، واتهما البنك بالتواطؤ ، وأبلغا النيابة للتحقيق مع الاثنين . لكن كان واضحاً أن صاحبنا تصرف فى حدود حقه ، ولم يبع بأقل من ثمن المثل مادامت العبرة بالسعر الرسمى ، فلا مجال للبحث له عن جريمة ، وإنما المجال هو فى طلب تعويض منه يكون محل نظر . واشتدت حاجة الأخوين للورق ، فتفاهما على طريقة سداد الدين وسكنت العاصفة .

كان المصرى قد ارتفع توزيعه فى أثناء قيام الشركة إلى ما فوق ثلاثين ألف نسخة، فانفرد بشركة التوزيع، وعهد صاحبنا فى إدارتها إلى شاب فى مقتبل العمر كان يتميز بصفاء الذهن واستقامة الخلق، فحقق فى عمله نجاحاً كبيراً .

وفرض المصرى نفسه على شركة الإعلانات الشرقية ، فتكونت بينهما شركة جديدة باسم شركة الإعلانات المصرية ، تحتكر إعلاناتهما ، ويتولى صاحبنا إدارتها مع العضو المنتدب ، وهو أجنبي يدير الشركة الشرقية .

ولم يكن فى الشركة مصريون غير السعاة النوبيين ، ومندوب واحد من مندوبى الإعلانات، فألفوا من بينهم وفداً جاء يقدم التهانى لصاحبنا ويعبر له عن فرحهم باختياره . وأدرك على الفور أن تمصير الشركة هو أول واجباته ، فبدأ ينتقى للوظائف التى تخلو شباباً مصريين من الملمين باللغات الأجنبية .

وكان العضو المنتدب أجنبيًّا شديد المراس ، وكان من حوله مساعدون أوفياء لا يأتمرون إلا بأمره ، وكان مجلس الإدارة قد تألف من ثمانية أعضاء : أربعة يمثلون شركة الإعلانات الشرقية ، وأربعة يمثلون جريدة المصرى، فكان صاحبنا يحضر المجلس بمفرده باسم الأربعة. وكان أحد الشبان من خريجى كلية الآداب قد لمع فى عمله الإعلانى ، فاقترح صاحبنا اسمه كمساعد لمدير الإنتاج ، ولكن العضو المنتدب لم يوافق بحجة أن فى هذا تعدياً على من هم أقدم منه . وأصر صاحبنا على الترقية بحجة أن الشركة تعمل فى مصر ، ومصر فيها عشرون مليوناً من الناس ، منهم مليون واحد من الأجانب . صحيح أن الأعمال فى يد الأجانب لكن أليس فى الأغلبية العددية الساحقة معلنون؟ أوليس من حق هذه الأغلبية أن يعترف بوجودها فيختار لها موظف مصرى واحد يتحدث إليها بلغتها ؟

وكان من بين ممثلي شركة الإعلانات الشرقية فى مجلس الإدارة اثنان من المصريين أحدهما كريم ثابت (باشا) ، والآخر هو حسين عنان (باشا) ، وكان الأول يتقاضى ألف جنيه فى السنة مقابل حضور جلسة واحدة فى كل عام هى الجلسة الختامية التى تنظر الميزانية وتوزع الأرباح. وقد تذمر يوماً من أتعابه هذه ، فقال متخابثاً لصاحب المصرى : « كل هذا الاستغلال للقصور بألف جنيه ! » فضحك صاحب المصرى قائلا : « القصور فى عقلك » . وساءت العلاقة بين الرجلين !

أما حسين عنان (باشا) فكان رجلا جاداً وأميناً ، ولذلك اختاره صاحبنا ليطلب معونته . قال له الباشا : « أرسل لى هذا الشاب ، فإن أعجبنى فسأعمل على تعيينه » . وذهب الشاب فاقتنع به الباشا وزكاه . ومنذ هذا اليوم أصبح من معالم النهضة الإعلانية فى مصر .

ثم صدر قانون اللغة العربية ففرضها على الشركات الأجنبية فى الدفاتر ، وانتهز صاحبنا هذه الفرصة فرقى شاباً آخر رئيساً للحسابات . وقامت الدنيا لأن مرتبه يقل عن مرتب أجنبى فى القسم نفسه ، فصحح صاحبنا الموقف بأن أعطى الرئيس المرقى علاوة تزيد مرتبه جنيهاً واحداً على مرتب الأجنبى . ومنذ هذا اليوم أصبح الشاب من معالم التفوق الإدارى فى دنيا الإعلان .

وفى قسم المراجعة لمع شاب من خريجى كلية التجارة فأفسح له صاحبنا الطريق حتى أصبح فيما بعد مديراً عاماً للشركة .

لقد كان صاحبنا سعيداً بنفسه حين كان من أوائل أساتذة إدارة الأعمال فى الجامعة ، وهو الآن أسعد لأنه أصبح صاحب مدرسة إدارية تمصّر وتوجّه ، ثم تتلمذ على تلاميذه بعد أن تفوقوا ، فزاد نجاحه بهم ، وزاد تعلقهم به حتى أصبح لمجموعهم أسلوب متميز فى العمل الإدارى فرض نفسه على الصحافة كلها .

ولكن الإدارة تعمل دائماً فى خدمة السياسة ، ولا تستطيع أن

تستقل عنها . وجاء يوماً إلى صاحبنا عم الملكة « ناريمان » يفاتحه فى أمر الفتور القائم بين المصرى و« السراى » . قال إنه ليس فى مصلحة البلاد ، وإنه يرجع إلى أن صاحب المصرى أقرض الملكة « نازلى » وهو فى أمريكا مبلغاً من المال مع أنه يعرف سوء التفاهم الذى بينها وبين ولدها فاروق ، كما أنه ثبت لدى فاروق أن صاحب المصرى يتعقب الأميرات فى مغانى باريس، ليصورهن فى السهرات تشهيراً بهن . ورأى صاحبنا من واجبه أن يطلع صاحب المصرى على هذا الحديث ، فرأى منه رغبة فى تصفية سوء التفاهم .

ورتب صاحبنا اجتماعاً بين صاحب المصرى وعم ناريمان اتفقا فيه على أن يكتب الأول خطاباً بخط اليد للملك يشرح فيه ظروف القرض ، وينفى فيه الاتهام ، وأخذ الثانى الخطاب ثم عاد يعلن أن فاروقاً أظهر استعداده لاستقبال صاحب المصرى فى موعد يحدد فيما بعد .

ولكن صاحب المصرى لم يسعد بهذا الخبر وقال للمدير إن فى تشرفه بالمقابلة الملكية إعلاناً عن توبة . ثم أضاف : « لقد ضحكوا عليك! فهم يريدون أن يعلنوا عن مقابلتى كما أعلنوا عن مقابلة عبد الحميد عبد الحق ، ليغضب النحاس (باشا) فيفصل المصرى ، وبذلك يصلون إلى القضاء على الجريدة » . وأدرك المدير أنه لايزال فى السياسة تلميذاً مبتدئاً .

ولكن إلياس أندراوس — وكان رئيساً لمجلس إدارة بنك مصر — أفهم صاحبنا فيما بعد أن فاروقاً اقتنع بما جاء فى خطاب صاحب المصرى، وأنه يعرض عليه أن يكون وزيراً إذا دفع مائة ألف جنيه ، أو أن يكون رئيساً للوزراء إذا دفع ربع مليون جنيه ! فرأى صاحبنا من واجبه مرة أخرى أن ينقل العرض لصاحب المصرى . وسخر هذا منه ، ولكنه طلب من صاحبنا أن يمنى « إلياس أندراوس » بالقبول دون أن يرتبط معه تفادياً لصدام عاجل يضر ولا ينفع .

ودارت الأيام ، فإذا صاحب المصرى يسافر إلى جينيف . ويطلب صاحبنا إليه . وسافر صاحبنا فوجد صاحب المصرى قد حجز له جناحاً فخماً فى فندق كبير ، وألحق به سكرتيرة خاصة من الفندق . وفى الصباح كاشفه بأن رئيس مجلس إدارة بيبسى كولا سيحضر من نيويورك ليكل إليه توكيلها فى مصر ، وطلب إلى صاحبنا أن يحسن استقباله ، وأن يتفاوض معه على أسس حددها . وجاء الرئيس فقالت له الاستعلامات إن صاحب المصرى متغيب وإن مديره موجود ، فردت السكرتيرة قبل تحويل المكالمة إلى صاحبنا ، ثم نزلت فصاحبت الرئيس إلى الجناح ، وهكذا تم إعداده ذهنياً للتفاوض .

ودعاه صاحبنا للعشاء فى الجناح فلبى . وكان صاحبنا على المائدة يعطى السكرتيرة تعليماته ، فتنقلها لرئيس الخدم الذى كان موجوداً هو الآخر ، ثم بدأت المفاوضات فى جو مشرق .

وكان صاحب المصرى قد عرف أن « إلياس أندراوس » موجود فى باريس ، فاتصل به ودعاه لمقابلة مديره إذ هو الذى سيتولى دفع المبلغ المطلوب للوزارة . وحضر على الفور بالطائرة .

كان رئيس مجلس الإدارة يعرف « إلياس أندراوس » منذ قابله فى القاهرة ، ولذلك أقام صاحب المصرى عشاء حضره الرجلان الكبيران ومعهما سفير مصر فى برن ، وعدد من رجال السفارة وسيداتها . وفى الصباح جاء الرئيس فقبل جميع الشروط ، وأمضى عرضاً قدمه لصاحبنا يبقى صالحاً ستة أشهر ، ثم استقل سيارة صاحب المصرى « الرولزرويس » إلى المطار وهو يهنئ نفسه على التعامل مع صاحب الملايين .

وكان فى أقصى المدينة رجل ينتظر . . إنه هو صاحب الملايين الفعلى الذى سيمول الصفقة كلها فينشئ شركة التعبئة ، أما صاحب المصرى فقد حقق لنفسه ربحاً كبيراً .

وجاء دور « إلياس أندراوس » فاتفق صاحب المصرى مع صاحبنا ،

على أن يصطنعا خلافاً يصرفه بعد أن أدّى مهمته فى مفاوضات البيبسى كولا دون أن يدري. فلما جاء قال صاحب المصرى لصاحبنا : « أنا لا أقبل أن أكون وزيراً ، ولكن لامانع عندى أن أكون رئيس وزراء فادفع لإلياس (باشا) ربع مليون جنيه » قال صاحبنا : « سأفعل بمجرد أن تتفضلوا بعمل الترتيب مع البنوك » . قال صاحب المصرى متعجباً : « أنا الذى أعمل الترتيب مع البنوك ؟ وما هى وظيفتك إذن ؟ » قال صاحبنا : « إن المصرى لا يستطيع دفع هذا المبلغ » . فصرخ صاحب المصرى « وهل كنت وصياً على حتى أحتاج إلى مشورتك إذا لم تكن مهمتك أن تقوم بالدفع ؟ » قال : « لا ، إن هناك سوء تفاهم » . فثار صاحب المصرى قائلا : « إنك تخلق سوء التفاهم عن قصد لتتخلص من الدفع » . ورأى « إلياس أندراوس » أن من واجبه أن يتدخل لإعادة المياه إلى مجاريها بين صاحبنا وصاحب العمل ، ثم استاذن فى السفر.

وساءت العلاقات بين القصر والمصرى من جديد ، فإذا مدير مصلحة التنظيم يأمر بإزالة جميع التخشيبات التابعة لشركة الإعلانات المصرية فى طريق الهرم بحجة أنها منافية لجمال المنطقة الأثرية . وذهب العمال فوراً فحطموها ، ولكن صاحبنا رفع دعوى عاجلة أمام مجلس الدولة فحكم بإعادتها مع دفع تعويض مناسب .

وفى مثل هذا بقى صاحبنا يعمل ليبقى الجريدة حزبية الوفد وغضب « السراى » . وكانت دار أخبار اليوم قد اعتزمت إصدار جريدة يومية باسم « الأخبار » ، ورأت أن تصدرها فى ثمانى صفحات بعشرة مليمات بدلاً من اثنتى عشرة صفحة بخمسة عشر مليما ، كما كانت تفعل الأهرام والمصرى . واختلفت الجريدتان القائمتان إزاء هذا الموقف ، فرأت الأهرام أن تبقى على حالها ، ورأى صاحبنا أن يصمد لمنافسة الجريدتين معاً فأصدر الجريدة فى اثنتى عشرة صفحة بعشرة مليمات . وكان لهذا القرار الجرىء أثره البعيد فى مركز الجريدة . فقد وصل توزيعها إلى مائة وستين ألف نسخة .



١٩٥٢-

استيقظ صاحبنا في الصباح على جرس التليفون يدق في إصرار فإذا العامل يقول : « المصرى محاصر بالجنود » . وتصور صاحبنا أن الحكومة تصادر عدد اليوم من الجريدة ، أو أن جريمة قتل وقعت فيها والجريدة ماثلة للطبع ، أو أن السلطات علمت بأمر العامل الذى قيل مرة إنه يتجر في المخدرات . تنقل بأفكاره بين هذه الاحتمالات ولكن احتمالا واحداً بقى بعيداً عن ذهنه وهو أن الثورة قامت لتقتلع الملك من عرشه !

ارتدى ملابسه ، وذهب إلى مقر الجريدة بشارع القصر العينى ، فوجد أمامها ثلة من الجنود على رأسها ضابط صغير قدم له نفسه فسمح له بالدخول . وعاد المحررون من ثكنات الجيش ومعهم أخبار الثورة وطلبٌ بإصدار ملحق عاجل عن مطالبها .

كان المحررون والإداريون في الجريدة يتنازعهم عاملان : عامل الفرح بالثورة والحرص على إنجاحها ، وعامل الخوف من إخفاقها ، فيحيق العقاب بهم جميعاً ، ولكن العامل الأول كان غلاباً فظهر الملحق على الفور .

وكان صاحب المصرى متغيباً في أوربا ، فلما عاد زار أعضاء مجلس الثورة في ثكناتهم مهنئاً ، ودعاهم إلى غداء في بيته . وكانت عنده آنية من الذهب الخالص اشتراها بمناسبة أن الملك عبد العزيز آل سعود كان قد وعده بالزيارة حين يجيء لزيارة الملك فاروق ، فلما حضر وأراد أن يبر بوعده عرف أن العلاقة بين الملك وصاحب المصرى سيئة ،

فعدل عن الزيارة . وقدم الطعام لأعضاء مجلس الثورة فى هذه الآنية ، فلاحظ صاحبنا أن أثرها عليهم كان سيئاً .

ووجهت الثورة للعضو المنتدب لشركة الإعلانات المصرية — وكان يهودياً — تهمة الاتصال بدولة أجنبية ، واقتضى التحقيق تفتيش بيوت مساعديه من اليهود ، فخطر لأحدهم أن يشكك فى أدلة الاتهام التى قدمها أحد الضباط من رجال الشرطة ، وأوعز إلى زوجته أن تغازله حين يدخل البيت وأن تحتفظ بمسجل بالقرب منها . وأحس الضابط من المحاولة بسوء القصد ، فأخطر مخابرات الجيش ، فأمرته أن يسايرها ليعرف مداها .

ودأبت الزوجة على الاتصال بالضابط تليفونياً لتسجل ردوده ، فكان هو يسجل كلامها على مسجل عنده ، وأخيراً طلبت منه أن يقابلها فى منزل فى وسط البلد ، فوعدها بذلك . وأخطر المخابرات ، وأخطرت هى النيابة العامة ، فجاء مندوبان فى الموعد ينتظران أمام المنزل دون أن يعرف كل منهما صاحبه . وجاءت الزوجة ففوجئت برجل المخابرات يقبض عليها . وجاء ضابط الشرطة ففوجئ برجل النيابة العامة يقبض عليه وسيق الاثنان للتحقيق .

وفى الصباح جاء الزوج إلى صاحبنا يتصنع الاحتجاج . قال إنه قد يتقبل الاضطهاد ، ولكنه لن يقبل أن ينتهز رجل الشرطة فرصة هذا التحقيق فيغازل زوجته ، وطلب من صاحبنا أن يحميها من العبث . ولم يكن صاحبنا يعرف حقيقة الأمر فثارت حميته وقصد فوراً إلى مكتب الصاغ عبد المنعم النجار ، وهو الذى كان يهيمن على التحقيق .

قال صاحبنا : إنه لا يمكن أن يتدخل فى التحقيق ، ولكن من واجبه أن يطلع المشرف على التحقيق على أمر يسىء إلى سمعة المحققين .. فابتسم الرجل وأدار شريط التسجيل ، فإذا صوت يعرفه صاحبنا ، هو صوت الزوجة وهى تغازل الضابط وتدعوه لمقابلتها . وصدر القرار بإخراج

العضو المنتدب من البلاد وانتخب صاحبنا لمنصبه ، وأصبح عليه أن يقود السفينة فى جو كثير التبعات .

وأول تبعة قابلته أن فريقاً موسيقيًّا من فرنسا كان متعاقداً مع الشركة على أن يعزف ثلاث سمفونيات تحت رعايتها فى الأوبرا ، وكان صاحبنا لايجيد الفرنسية ولايفهم فى السمفونيات ، فحاول أن يعتذر عن حضور الحفل ، ولكن مساعديه أفهموه أن سفير فرنسا سيحضر ، وليس من اللائق أن يستقبله أحد يقل عن الرجل الأول فى الشركة .

وخطر لصاحبنا حل . . لقد طلب من رئيس تحرير البورص أن يعد له معلومات كافية عن كل سمفونية ، حتى إذا جاء السفير أمكن لصاحبنا أن يتعالم فى حديثه معه فيسوق هذه المعلومات مستخدماً المصطلحات الموسيقية .

ولكن خاطراً آخر أزعجه . ماذا لو غيرت الفرقة ترتيب السمفونيات فبدأت بالسمفونية الثانية مثلا ؟ إن صاحبنا سيأخذ فى الحديث مع السفير عن الأولى ! وطلب من رئيس التحرير أن يجلس معهما فى نفس البنوار حتى إذا رأى تغييراً فى الترتيب لفت نظر صاحبنا إلى أن يقدم فى محفوظاته أو يؤخر .

وبدأ الحفل بكلمة محضرة بالفرنسية ألقاها صاحبنا ، رد عليها السفير ، ثم سار العزف وسار الحديث طبقاً للخطة الموضوعة . وعند الختام سلم السفير مودعاً ومشيداً بمعلومات صاحب الدعوة فى فن الموسيقى !

وكانت الكوكاكولا من أكبر عملاء الشركة . جاء رئيس مجلس إدراتها فى زيارة للقاهرة ، فطلب مديرها المقيم ، وهو أمريكى ، من صاحبنا أن يشترك معه فى تكريمه . وأقام صاحبنا عشاء حافلا فى القاعة الكبرى للشركة حضره رجال الأعمال والرسميون وعلى رأسهم رئيس الجمهورية فى ذلك الوقت . وسار مستر هانجان — وهذا اسمه — فى صحبة الرئيس لافتتاح المقصف فطلب زجاجة كوكاكولا . .

واكتشف منظمو الحفل أنهم فكروا فى جميع المشروبات إلا الكوكاكولا !

وفى اليوم التالى أقام المدير المقيم غداء مرحاً فى صحارى سيتى ، وكان الوقت شتاء فأقام خيمة ، وأتى بخيول ترقص وجمال تركبها السيدات ، وكان من بينهم سائحة أمريكية أراد المدير المقيم أن يمزح معها ، وهو صديق زوجها ، فاتفق مع صاحب الجمل على أن يركبها إياه ، ثم يقف الجمل فجأة على رجليه من أمام ، فتفقد توازنها ، فتوشك أن تسقط . واتفق مع هانجان على أن يتلقاها بين ذراعيه ، وكان المصور على علم بهذين الاتفاقين ، فالتقط الصورة التى بدت غرامية متأججة ، وأرسلها المدير المقيم لزوجة هانجان ولزوج السيدة فى أمريكا !

كان على صاحبنا أن يخرج على نفسه أحياناً ليساير هذه الروح الأمريكية العابثة ، وأن يتوفر على عمله الإعلانى فلا يفكر فى سواه . وقد سبق أن عرض عليه أن يرشح نفسه وفدياً لمجلس النواب فأبى ، بل لم يقبل يوماً أن يكون عضواً فى لجنة من لجان الأحزاب، فكان الجميع يلتقون فى مكتبه وهم مطمئنون إلى أنهم على أرض محايدة .

وعرف صاحبنا أن الأوصياء على ورثة مستر فنى لم يعد لهم مصلحة فى أن يستمروا فى إصدار البورص والبرجريه والجازيت ، فساومهم على شراء شركة الإعلانات الشرقية التى تملك هذه الصحف ، ونجح فى ذلك فأصبح صاحب المصرى ملك الصحافة المصرية .

كان صاحبنا سعيداً بعمله فى الشركتين ، ولكنه كان دائماً يتوقع شرًّا من ناحية المصرى . كان يرى الأمور تتعقد بينها وبين الثورة ، حتى صدر القرار أخيراً بمحاكمة صاحب المصرى أمام محكمة الثورة .

وبينما صاحبنا جالس بعد ذلك فى مكتبه بشركة الإعلانات المصرية دخل عليه على يحيى دون موعد سابق ، وقال إن له عند صاحب المصرى مبلغاً كبيراً هو رصيد عمليات فى البورصة ، وطلب منه أن يسدده قبل أن

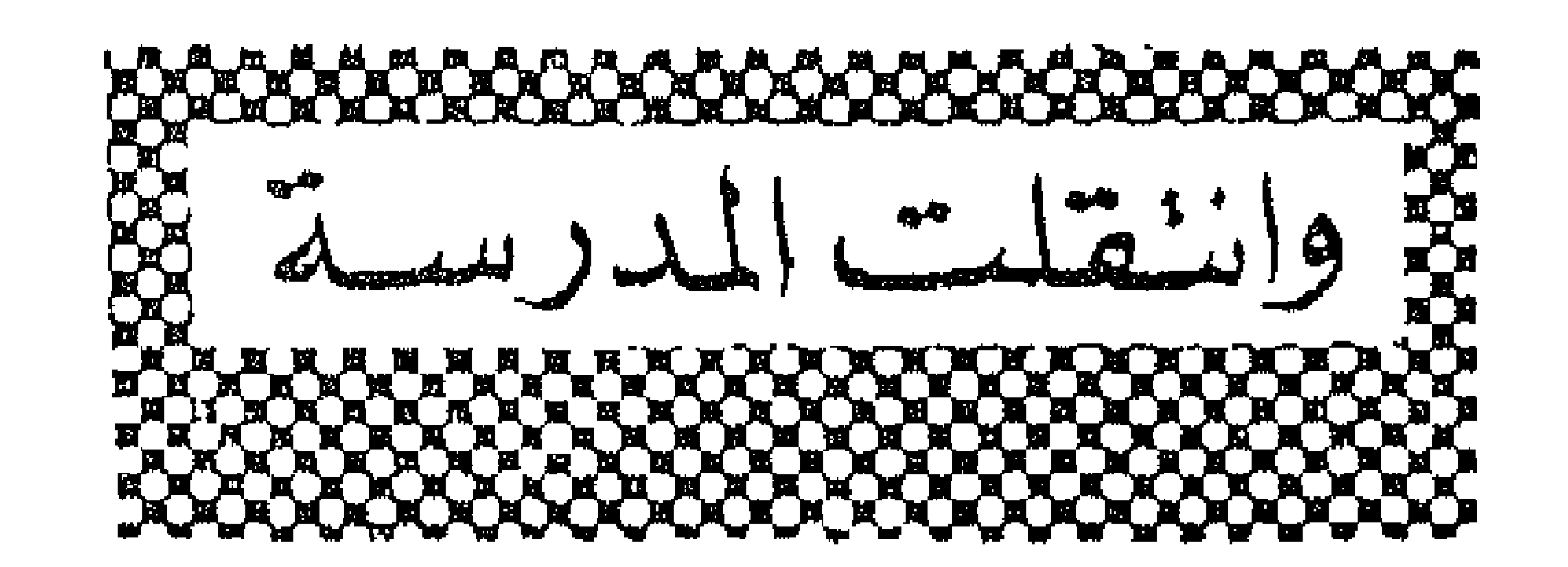
تصادر أموال المصرى . قال صاحبنا إنه لايعرف شيئاً عن الدين ، واعتذر من عدم الدفع ، ولما لم يجد على يحيى استجابة رفع دعوى مستعجلة فلم تسفر عن شيء . وهنا تقدم مدير أحد البنوك الكبرى من أقربائه ، فأظهر استعداده لإقراض المصرى مبلغاً مساوياً للدين مقابل تقديمه لعلى يحيى . ولكن صاحبنا أصر على أن تبقى ساعة المصرى دقاقة حتى توقفها المحكمة إذا شاءت .

وكانت المصارف قد رأت أن تحتاط للأمر فضيقت على الجريدة فى الائتمان ، بل أخذت تستولى على كل ما يصل إليها من إيراداتها ، فظل صاحبنا يجمع من إيرادات الجريدة بعيداً عن البنوك حتى تمكن من صرف مرتبات الموظفين جميعاً فى آخر شهر من حياة الجريدة ، وإن كان قد نسى نفسه فلم يقبض مرتبه .

ثم بقى على وفائه للسيدات وللأطفال من أسرة صاحب المصرى حتى غادر القطر منهم من غادر ، واستقر الباقون على حال آخر .

أما شركتا الإعلانات الشرقية والمصرية فبقيتا تعملان ، وبقى صاحبنا فى مكتبه ، فإذا ضجيج وهتاف ومئات من العمال متجمهرون أمام المكتب غاضبين ، ماذا ؟ لقد جاء موعد صرف أجورهم ، فإذا الشيك يرتد لأن أموال الشركة جمدت فى البنوك ، فاعتقدوا أن صاحبنا هو الذى فعلها .

وأدرك أن بقاءه لم يعد فى مصلحة العمل ، فقدم استقالته من مناصبه كلها .



١٩٥٤-

قبع صاحبنا فى بيته بعد إقفال المصرى لايزور أحداً . ثم خطر له — وهو عضو فى نادى الجزيرة — أن يقضى فيه بعض الوقت ، وكان اليوم يوم جمعة والنادى مزدحماً بالناس. فلاحظ بعد قليل أنهم لا يكادون يجدون لأنفسهم مكاناً ، ومع ذلك بقيت المنضدة التى إلى جواره خالية يأخذون المقاعد من حولها ولا يجلسون إليها ، فأدرك أنه أصبح تهمة ، وسارع بالخروج من النادى ليفرج عنهم !

قبع فى بيته لا يزور أحداً ، ولكن كان يزوره زملاؤه الذين كانوا معه فى المصرى ، وأصدقاؤه الذين فهموا من عدم القبض عليه أنه قابل للمس . وكان الزملاء حزانى لأن المصرى كان بالنسبة لهم عملاً كبيراً . لم يفكروا فى سياسته التحريرية التى أدت إلى إقفاله لأنهم لم يربطوا أنفسهم يوماً بعجلتها ، وإنما كانوا يفكرون فى المدرسة الإدارية التى أقاموها ، وفى النجاح التوزيعى والإعلانى الذى حققوه .

وبينما كان الزملاء يناقشون موقفهم دق جرس التليفون ، وكان المتكلم أحد صاحبى أخبار اليوم . إنه وأخاه فى طريقهما للزيارة . وبعد قليل حضرا ، فقال أحدهما لصاحبنا : « إننا نريد أن تعمل لأخبار اليوم مثل ما عملته للمصرى . . » ، وقبل أن يتم كلامه انفجر صاحبنا باكياً ! لقد كان هذا آخر ماتصوره ، فقد كان إلى ثلاثة أيام خلت مديراً للمصرى ، وكان منافساً منتصراً ، فهل يترك اليوم مكتبه إلى مكتب

غريمه ؟ صحيح أن قلعة المصرى قد انهارت ، ولكن ساعة إنزال العلم هى التى تبكى .

وذهب يستطلع الأحوال فى « أخبار اليوم » ، فإذا هو يرى منظراً لا ينساه :

محرر يأخذ بخناق أمين « الخزينة » ويضربه بمسطرة فى يده ، وأمين « الخزينة » يدافع عن نفسه ويقول : « أنت أخذت مرتبك فى الشهر الماضى ، فدع غيرك يأخذ مرتبه فى هذا الشهر » . واستفهم صاحبنا عن جلية الأمر فعرف أن الدار عجزت عن دفع مرتبات المحررين منذ أشهر ، فقررت أن تعطى فريقاً منهم فى شهر ، وفريقاً آخر فى الشهر التالى، ليقبض كل منهم مرتبه الشهرى كل شهرين. وانتهز أمين «الخزينة» هذه الفرصة فخلق لنفسه سوقاً سوداء: يعطى المرتب لمن يدفع الأتاوة ويمنعه عمن لايدفعها .

وفيما صاحبنا يتجول فى الدار رأى المعاون يمارس نجاراً فى إصلاح شباك ، فطلب النجار خمسة عشر قرشاً ، ووافق المعاون ، ولكن النجار اشترط الدفع المقدم ، وقال إن على الدار عشرين قرشاً لم تدفعها عن عملية أخرى منذ أشهر .

وفى غرفة الحسابات رأى تاجر ورق يتهجم على رئيسها . إن التاجر عائد لتوه من البنك بعد أن لم يتمكن من تسلم قيمة « الشيك » الذى أعطته الدار إياه لنفاد رصيدها .

وأدرك صاحبنا مهمته على حقيقتها . إن الدار تكتنفها الصعوبات المالية من كل جانب ، فلابد من قطرات من الدم فى حقنة سريعة قبل التفكير فى العلاج .

وذهب صاحبنا إلى « أحمد عبود (باشا) » ومعه هدية هى قطعة من أستار الكعبة عليها هذه الآية الكريمة . .

«ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» . قال : يا باشا ، إن أعمالك الاقتصادية فى حاجة إلى إعلان دائم ، والدار فى حاجة إلى مبلغ عاجل ، فأعطنا ثلاثين ألفاً ونحن نقدم لك خصماً كبيراً على أسعارنا ، فقبل الباشا وتسلم المدير المبلغ ، فلم يودعه فى البنك خوف الحجز عليه ، وإنما أودعه خزانة حديدية فى مكتبه .

وذهب صاحبنا إلى « عبد المقصود أحمد (باشا) » . وكان رئيس مجلس إدارة بنك مصر ؛ قال : يا باشا ، أنت تعرفنى كمدير للمصرى ، وتعرف خطتى فى العمل . إن على أخبار اليوم للبنك ديناً كبيراً ، ولكننى لم أحضر لأسده ، بل حضرت أطلب ديناً جديداً يحيي للبنك دينه الأول فاسمح لى أن أتقدم بمذكرة أشرح فيها خطتى لتحقيق ما أقول . قال « عبد المقصود أحمد » بعد أن قرأ المذكرة : أنا أعرف أن أحوال أخبار اليوم سيئة ، ولكننى ثقة فى مقدرتكم أوافق على السلفة الجديدة .

ثم ذهب صاحبنا إلى البنك العربى ، فوجد « عبد الحميد شومان » ثائراً . قال إن أخبار اليوم قدمت للبنك « شيكات » من شركة التوزيع ، ثم ظهر أن الشركة ليست شخصية معنوية مستقلة ، وإنما هى إدارة من إدارات الدار . وقال إنه تسلم « شيكاً » على أنه من معلن ، فإذا بالمعلن مندوب من مندوبى الإعلانات قدم « الشيك » ليمكن الدار من سحب حاجتها من الورق فى انتظار ورود القيمة المقابلة ، ثم أنهى كلامه قائلا : « نحن نريد أن نسكر الحساب » .

ولكن صاحبنا قال إنه يربأ بالبنك العربى أن يقرن اسمه بإشهار إفلاس أخبار اليوم ، وطلب مزيداً من الصبر .

على هذه الصورة عمل صاحبنا فى سنته الأولى . كان كمن يسند حائطاً بالخشب والحبال ، فقد غير فى الوظائف والموظفين ، واقتصد

فى بدلات الانتقال والتمثيل ، ورتب مع الدائنين نظاماً للدفع يضمن لهم حقوقهم ولا يرهق مالية الدار .

وكان الإمضاء على «الشيكات» لصاحبنا وحده لا يشاركه فيه حتى أصحاب الدار أنفسهم . كان مطلق اليد إلا فى شىء واحد هو كل ما يتعلق بالأستاذ « محمد التابعى » . فقد تتلمذ عليه صاحبا أخبار اليوم ، ولذلك كانت كلمة « الأستاذ » لاتنصرف إلا إليه ، وكان يتسلم مرتبه دون أن يمضى على إيصال ، فلما حاول صاحبنا تغيير الوضع رفض التابعى ثم قبل بعد إلحاح .

كان فى أخبار اليوم مفهوم خاطئ للمسئولية الإدارية . فالإدارة تنحصر سلطتها فى الإداريين ، أما المحررون فيخضعون فى حقوقهم المالية لرئيس التحرير . هو الذى يقرر ما يخصم من ضريبة كسب العمل ، وهو الذى يحدد مدة الإجازة السنوية لكل منهم ، ويمنحهم السلف . فلما أرادت الإدارة أن تبسط نفوذها فى هذه الميادين قام الخطباء فى صالة التحرير يندون بالاتجاه الجديد ، ويستنفرون العزائم لمقاومته. وكتب كامل الشناوى لصاحبنا خطاباً قال فيه :

« إذا كنت ياسيدى تود الاشتغال بالتحرير فإننى أهدد بالاشتغال بالإدارة . إنك وازنت بين الإيرادات والمصروفات بجمع التبرعات من المحررين ، وأحلت أخبار اليوم من مؤسسة صحفية كبرى إلى متجر كبير » .

ولكن المحررين أدركوا بعد قليل أبعاد النظام الجديد ، وسعدوا به حين توجهوا بعد شهر واحد إلى « الخزينة » فوجد كل منهم مرتبه بالجنيه والمليم فى ظرف عليه اسمه .

وانصرف صاحبنا إلى زيادة التوزيع ليتمكن بعدها من زيادة حصيلة الإعلانات ، فأجرى استقصاء ميدانياً فى مناطق القطر ، ليتعرف على خصائص المشترين لصحف أخبار اليوم والمشترين لصحف الدور الزميلة ، وخرج منه بذخيرة كبيرة من المعلومات أنارت السبيل أمام

المسئولين عن التحرير ، فقدموا للقراء ما طلبوه من مادة تحريرية . ثم أشعل الجذوة فى نفوس العاملين بتقرير حوافز للإنتاج مجزية ، فزادت الإعلانات وتحسنت سمعة الدار لدى البنوك والمتعاملين .

وكان « عبد المقصود أحمد » قد ترك بنك مصر. فلما دفع صاحبنا آخر قسط من الذين زاره فى داره وقال له : « لقد كنت يا سيدى عند حسن ظنك ، وهذه مخالصة من بنك مصر » ففرح « عبد المقصود أحمد » فرحاً شديداً وعانق صاحبنا مهنئاً .

ثم أراد صاحبنا أن يسافر إلى الخارج ليتصل بمنابع الإعلانات . فلما انتهى فى المطار من الإجراءات الجمركية ،واستعد لركوب الطائرة بعد أن نقلت إليها حقائبه . سمع منادياً يناديه فى المكبر أن يذهب إلى مكتب الشرطة . ويذهب صاحبنا فيجد اسمه فى سجل الممنوعين من السفر . ثم يصدر أمر بإنزال حقائبه من الطائرة . فتنتشر فى المطار شائعة بأنها مملوءة ذهباً ، وأن المسافر مهرب دولى كبير . ويلطم موظف الجمارك خديه على أن صدق المسافر فلم يفتح حقائبه ، وتلتهم الأنظار شخص صاحب الحقائب لتحقق معالمه ، فترى مظاهر المكر فى عينيه ، وأمارات الخيانة فى وجهه ، ولكن ضابطاً يخرج فجأة فيخيب ظنهم ويفسح الطريق للمسافر ليعود إلى بيته ، ثم يعرف الناس أن أمراً صدر بمنع الذين كانوا يعملون فى المصرى من السفر ، ومن بينهم صاحبنا .

وفى الصباح زار صاحبنا « عبد العظيم فهمى » ، وكان مديراً لمخابرات الشرطة بوزارة الداخلية . قال مدير المخابرات : « نحن نعتقد أن فيك طاقة من الوفاء لأصحاب المصرى . وقد تسافر إلى أوربا فتتورط معهم فى عمل لاتريده ، وأنا أريد أن أحميك من نفسك » . قال : شكراً ، ولكن لى ماضياً يمكن أن يدل على مستقبلى ، فقد كنت مديراً لجريدة المصرى ، ومع ذلك فلم أكن عضواً فى لجنة من لجان الوفد فى

وقت كان الانتساب إليه مكسباً كبيراً . ولست اليوم مضطهداً حتى أبحث عن مغامرة جديدة ، فأنا أتقاضى من عملى مرتباً هو من أكبر المرتبات فى الدولة وأنا سعيد بأسرتى ، ولى طفلة لم تكمل سنتها الأولى . ومن كان هذا حاله لايعد نفسه لعمل أحمق» . قال « عبد العظيم فهمى» : « أنا اقتنعت » . وسمح لصاحبنا بالسفر .

ثم سار كل شيء فى طريقه فسعد صاحبنا بتحسن الأحوال فى أخبار اليوم وتزايد ثقة صاحبيها فيه . ولكن أحد كبار المحررين بدا له يوماً أن يكتب له خطاباً جارحاً للاحتجاج على قرار إدارى وجده مجحفاً به ، فلم يزد صاحبنا على أن أمسك قلماً أحمر — كما كان يفعل وهو مدرس — وأصلح الأخطاء اللغوية الكثيرة التى وردت فى الخطاب ثم حوله هكذا إلى صاحبى الدار .

ولفت نظرهما دقة صاحبنا فى قواعد النحو والصرف ، وتذكرا نشأته الأزهرية فطلبا منه أن يعالج الأغلاط اللغوية فى صحف الدار بالإشراف على المصححين ، ورأى أن يطمئن على مستواهم فاختبرهم فى اللغة ، وخرج أحدهم يشكو من قسوة الامتحان متهكما : « هذا المدير أين عمامته ؟ »

وكان صاحبنا على موعد مع القدر حين جاءه يوماً أحد كبار المحاسبين فقال إن الدكتور مصطفى الحفناوى استشاره فى القيمة الدفترية لقناةالسويس ، وإنه علم منه أن فى نية الرئيس جمال عبد الناصر أن يعلن تأميم القناة فى الغد ، وفكر صاحبنا فى سبق صحفى عالمى تنفرد به الأخبار ، فدخل على صاحبى الجريدة يريق الخبر فى آذانهما ، ويقترح أن يسافر محمد يوسف كبير المصورين الى الإسماعيلية ومعه أحد المخبرين ليقوما بتحقيق صحفى عن منطقة القنال ، فإذا أعلن الخبر كانا فى المكان المطلوب ، ولكن صاحبى الجريدة استبعدا صحة الخبر فلم يستجيبا للاقتراح . وفى اليوم التالى كنا جميعاً حول جهاز الراديو

نستمع إلى خطاب الرئيس، فإذا به يتندر ويمزح . قال أحد الأخوين لصاحبنا متهكماً : « ألا تزال تظن أن الرئيس مقدم على تأميم القناة ؟» وبعد قليل انتقل الرئيس من المرح إلى الجد فأعلن القرار التاريخى .

كان صاحبنا لايسعى إلى الأخبار ولكن بعض الأخبار كانت تسعى إليه بحكم وجوده فى الوسط الصحفى . ومن ذلك أن أحد المحققين من رجال الجامعة كان يشرف على قسم المعلومات ، وجاءه مقال من الأستاذ عباس محمود العقاد رأى فيه اسماً لاتينياً يحتاج إلى تعديل فعدله، وظهرت الجريدة فى اليوم التالى فهاج العقاد وكتب إلى صاحبنا خطاباً جاء فيه : « قل لمصححك الجاهل ألا يستطيل قلمه على مقالى . . إلخ » . وأخفى صاحبنا الخطاب عن المحقق ، ولكنه رجاه أن يستثنى العقاد من تحقيقاته ، فقال : « هل أفهم من ذلك أن العقاد غاضب من التصحيح اليسير الذى أجريته؟ » قال صاحبنا : « نعم » ، فقال المحقق : إننى أعد العقاد أستاذى ، فلا بد أن أزوره لأعتذر له . وكان صاحبنا يعرف فى العقاد حدة الطبع ، فنصح المحقق ألا يفعل ، ولكنه وجد نفسه يوماً فى مصر الجديدة ، فزار العقاد وفتح الموضوع ، فإذا العقاد يفاجئه آه إذن أنت المحرر الجاهل ؟

فخرج المحقق متأثراً ، وعاد إلى مصطفى أمين مهدداً بالاستقالة إذا لم يجر تحقيقاً مع العقاد، ولكن مصطفى أمين طيب خاطره وقال له : « إن كل ما سيترتب على التحقيق مع العقاد أنه سيؤكد رأيه فيك وسيضمنى إليك فى هذا الرأى » . وانتهى الموضوع .

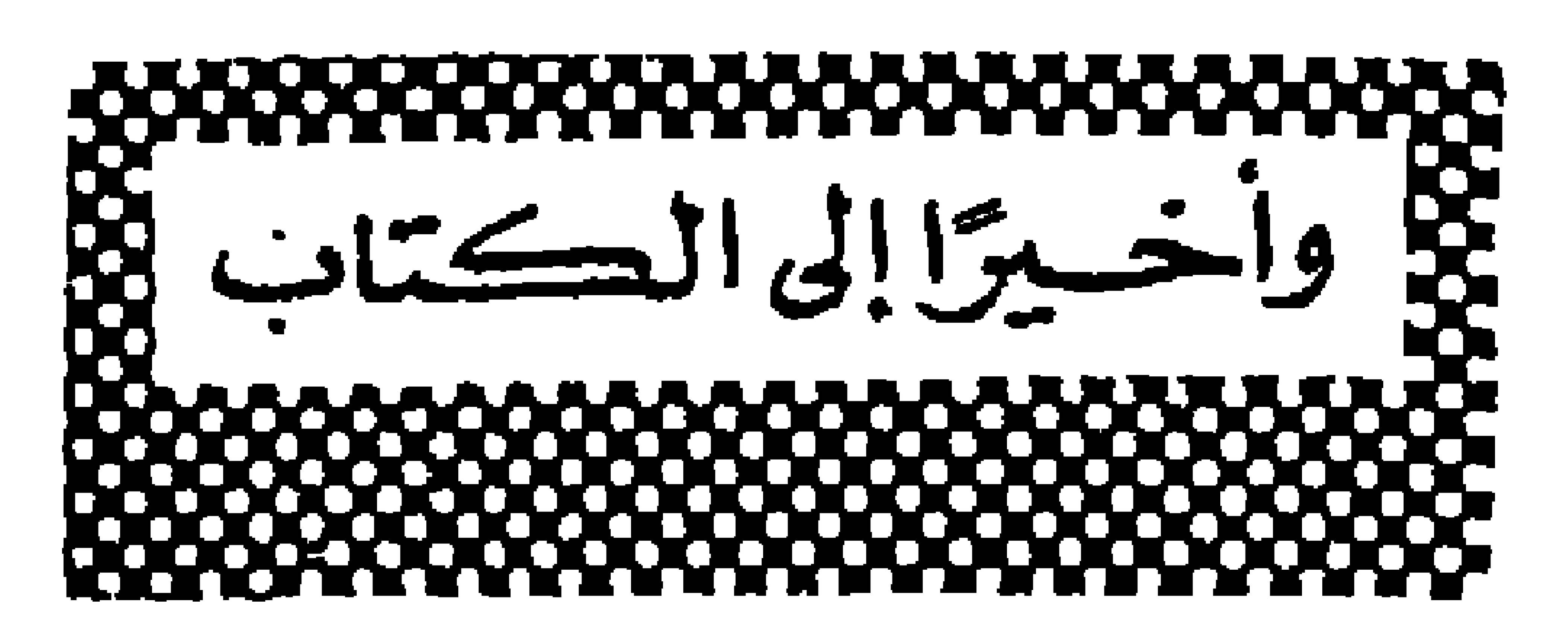
رحم الله العقاد . لقد كان معتداً بنفسه إلى درجة المبالغة حتى إن أحد علماء الزيولوجيا كان يتحدث إليه يوماً فى المجمع اللغوى فجاء على لسانه قوله : « عندنا فى الزيولوجيا » فعز على العقاد أن يقول : « عندنا » ، وعقب قائلا : « عندكم إيه يا حيوان .هل تعنى أننى لا أفهم فى الزيولوجيا أحسن منك ؟ » .

وجاء العقاد يوماً إلى « خزينة » الدار ليقبض مستحقاته فوجدها مقفلة ، فدخل على صاحبنا فى مكتبه منفعلا وقال : « لم أكن أعرف أنك أصبحت صاحب أخبار اليوم تقفلها حين تشاء ! »

كان صاحبنا مطالباً — بحكم عمله — أن يتعامل مع التحرير ، وأن يسترضى كبار المحررين ، وكان يلاحظ أن الطاقات الكبيرة لها انحرافات كبيرة ، ولذلك كان يداريها إن لم يستطع معالجتها ، وظل يعمل بنجاح حتى جاء يوم فى سنة ١٩٦٠ . . .

لقد دق جرس التليفون مرة أخرى فى إصرار ذكر صاحبنا بدقته الأولى حين أقفل المصرى . وكان المتكلم هذه المرة هو « أمين شاكر » . مدير مكتب الرئيس جمال عبد الناصر. لقد قال إن قانونا صدر بتنظيم الصحافة ، وإن قراراً صدر بتعيين صاحبنا عضواً منتدباً وطلب منه أن يكون فى مكتبه فى تمام الساعة السابعة .

. . . ثم مرت من تحت القنطرة مياه كثيرة ، ونقل صاحبنا من أخبار اليوم عضواً فى مجلس إدارة الأهرام ومشرفاً على دار المعارف .



١٩٦٣ -



لم يكن صاحبنا بمستطيع أن يفرط قيد أنملة فى النجاح الذى حققه بعرق الجبين فى أخبار اليوم ، ولم تكن نقابة العاملين بمستعدة أن تحسبه من الأسرة بعد أن كان يعمل مع أصحاب رأس المال . كانت النقابة تتحدث إليه باسم العاملين ، وكان صاحبنا يرد بلغة الأرقام . كانت تطالب برفع الأجور وكان يطالب برفع الإنتاج . وأخيراً ثار العمال فلم يجد بدًّا من أن يستقيل .

لن ينسى صاحبنا ثلاث صور من ذكرياته فى أخبار اليوم : إحداها لإبراهيم مراد رئيس النقابة ، وهو جامع أحرف يسكن فى بولاق ، لقد زاره صاحبنا مرة فوصل بالسيارة إلى أن أصبح التقدم بها متعذراً ، وانحرف يساراً فى طريق متعرج ، ثم يميناً فى طريق منحدر، ثم استقام به الطريق إلى أمام حتى انسد ، فعرف أنه وصل إلى حيث يسكن إبراهيم مراد ! هذا الرجل كان يختلف مع صاحبنا كثيراً فى الرأى ، وكان كلما زاد خلافه معه زاد احترامه له ، لأنه لم يطلب منه يوماً علاوة لنفسه أو لأحد أبنائه . كان يهاجم الإدارة بالحق وأحياناً بالباطل . وكان يهدد بالويل وعظائم الأمور ، ولكنه كان فى هجومه نزيهاً بغير حدود ، مخلصاً فى حدود ما يرى . وقد بحث صاحبنا عن منزله بعد أن ترك أخبار اليوم ليعبر له من تقديره لنزاهته .

والصورة الثانية لعضو فى النقابة كان عاملا بالجراج ، يجيد الإثارة ، ويلوك بين شدقيه كلمات : الانطلاق، وأرضية المفهوم ، واللجنة المنبثقة. ، دون أن يفهم دلالاتها ! ولكنه أصبح عن طريق ذلك موظفاً كتابيًّا — وذات مساء دخل صاحبنا إلى بيته فوجد فى الظلام شبحاً . كان عضو النقابة واقفاً فى ركن فى مدخل العمارة ، فلما رأى صاحبنا انحنى يقبل قدميه ويردد: « أنا خدامك .

إنك إذا أعطيتنى خمسة جنيهات علاوة فسأكون نصيرك على الدوام فى خلافك مع النقابة ، بل سأضرب من يخالفك من الأعضاء » .
وأبدى صاحبنا امتعاضه ، ثم صعد إلى مسكنه . وكانت النتيجة مؤتمراً كبيراً عقد بعد يومين فى نادى أخبار اليوم لمحاسبة المدير على تقصيره فى حق العمال . وخطب فيه عضو النقابة هذا فقال إنه لايفهم أن ترفض الإدارة سلفة قدرها ثلاثة جنيهات لأحد العمال إذا كان لها فى البنك ربع مليون جنيه . وحين يدعى المدير أن المبلغ مخصص لشراء آلة طباعة من الخارج فإن النقابة تتهمه بالمغالطة ، لأن المبلغ بالجنيه المصرى وثمن الآلة تدفعه مراقبة النقد بالإسترلينى ! أما المدير فقد خرج من المؤسسة ، وأما عضو النقابة فقد أصبح من رجال التحرير !

والصورة الثالثة لأحد السعاة ، لقد اعتدى بالشتم على إحدى المحررات ، فنقله صاحبنا من القسم الذى يعمل فيه ، وحقد الساعى على صاحبنا ، فانتهز فرصة وفاة ولده بعد خروج صاحبنا من أخبار اليوم وكتب له خطاباً جاء فيه :
لقد ذهبت أمس لأسير فى جنازة ولدك . وقد تظن أننى كنت أجاملك ، ولكن الواقع أننى أردت أن أتشفى فيك ، فلما رأيت عينيك لاتدمعان قلت : يا لله ! إن هذا الرجل قد قلبه من حجر فهو لايرق حتى لابنه !
ودارت الأيام . . فانتدب صاحبنا من جديد مشرفاً على أخبار اليوم بعد استقالته منها ، فتوقع الساعى شراً ، وجاء يقبل الأعتاب ، فدعا له صاحبنا بالسعادة ليطهر قلبه من الحقد .

استقال صاحبنا من أخبار اليوم ، ليوفق بين ما يراه واجباً كمدير ، وما يجده ضرورياً من النزول عند رأى الأغلبية ، لم يكن أمامه إلا أن يترك فراغه لمن يستطيع أن يملأه خيراً منه . وأراد محمد حسنين هيكل أن

يكرمه فجمع مجلس إدارة الأهرام ليدعوه لقبول عضويته . ومن الجلسة اتصل هيكل تليفونياً بصاحبنا ليبلغه رغبة المجلس . وفى غمرة هذا التكريم نسى صاحبنا ما أصابه من خدوش فى معركة الدفاع عن أخبار اليوم .

ومن الأهرام أشرف على دار المعارف ، فوجد فى عمله الجديد اختلافاً كبيراً . لقد كان يعد الجريدة متأخرة إذا صدرت بعد ربع ساعة من موعدها ، فأصبح يرى الكتاب يصدر بعد ثلاثة أشهر أو أربعة . وكان يحسب توزيع الصحف بمئات الألوف ، فأصبح ، يحسب توزيع الكتب بالألوف فقط بل بالمئات . وكان يعمل مع مجموعة من الصحفيين يتصفون بسرعة الحركة وكثرة الإنتاج ، فأصبح يتعاون مع مجموعة من المؤلفين يتميزون بالعمق فى التفكير والدقة فى إبداء الرأى . وقد ترك أخبار اليوم وهى كبيرة منتعشة ليجد دار المعارف أصغر حجماً وأكبر سمعة .

ولما أصبح صاحبنا بحكم عمله مسئولا عن قسم النشر ، وفيه مجلس من كبار الكتاب والعلماء ، قرر المجلس نشر كتاب يملأ فراغاً كبيراً فى العالم العربى هو « محيط العلوم » ، فصدر الكتاب بأقلام صفوة من الجامعيين ، ولكنه لم يصادف رواجاً يذكر برغم قيمته العلمية الكبرى .

وفكر صاحبنا فى أن خطب الجمعة والعيدين لاتزال فى أسلوبها العتيق بعيدة عن الدنيا وما استجد فيها من شئون ، فرجا الدكتور السعيد مصطفى السعيد ، وهو المستشار الثقافى للدار ومدير جامعة القاهرة السابق ، أن يدعو كبار القضاة الشرعيين ، ورجال الدين ، ليكتبوا الخطب بأسلوب جديد ، وكان من بينهم الشيخ فرج السنهورى والشيخ محمد أبو زهرة ، فجمعت الخطب فى كتاب ، ولكن الكتاب بقى دون بيع ، لأنه خال من السجع ، ولأن خطباء المساجد لايحبون الحديث فى شئون الدنيا !

وتأمل صاحبنا عشرة آلاف مؤلَّف أصدرتها دار المعارف خلال ثمانين عاماً ، فخرج منها بنتيجة غريبة ، هى أنه لو قيل إن رواج الكتب يتناسب تناسبا طردياً مع قيمتها لكان هذا أبعد عن الصواب مما لو قيل إنه يتناسب تناسباً عكسياً مع هذه القيمة . لقد كانت الدار تستمد الفائض طول عمرها من الكتب المدرسية والقصصية والأدبية وكتب الأطفال لتنفق منه على كتب العلم .

وهكذا أدرك صاحبنا لماذا يختلف الجامعيون مع دور النشر . فالعلماء يحكمون على مؤلفاتهم بمقدار ما فيها من مادة علمية ، على حين يحكم الناشرون عليها بمقدار ما ينتظرها من رواج ، فقد يكون المؤلف ذا قيمة ذاتية كبيرة ، ولكن قيمته السوقية محل نظر !

إن أحد الأساتذة فى كلية الحقوق كان يتقاضى عن مؤلفه نسبة عالية ، فلما رقى مديراً للجامعة أنقص الناشر هذه النسبة إلى أقل من النصف ، لأن المؤلف لم يعد يضع الامتحان لتلاميذه ، فلم يعودوا يشترون كتابه .

وقد فتح صاحبنا منافذ النشر فى دار المعارف على جميع الثقافات والأديان ، فترجم الكتب الروسية والكتب الأمريكية ، ونشر تفسير القرآن وتفسير الإنجيل . ذلك أن الثقافة للناس جميعاً فليس من حقه أن يفرض نفسه على القراء . إن عليه أن ينتقى المادة الطيبة فى كل فرع من فروع المعرفة ثم يرسلها إرسالا فيرى ناس أن ما فيها صحيح ويرى ناس أن ما فيها يستحق التعليق ، ولكنهم جميعاً يرون أنها تستحق القراءة ، ثم يخرجون بعد قراءتها وقد أعملوا فكرهم فى معانيها ، وتمثلت المعانى فى أذهانهم ثقافة خالصة .

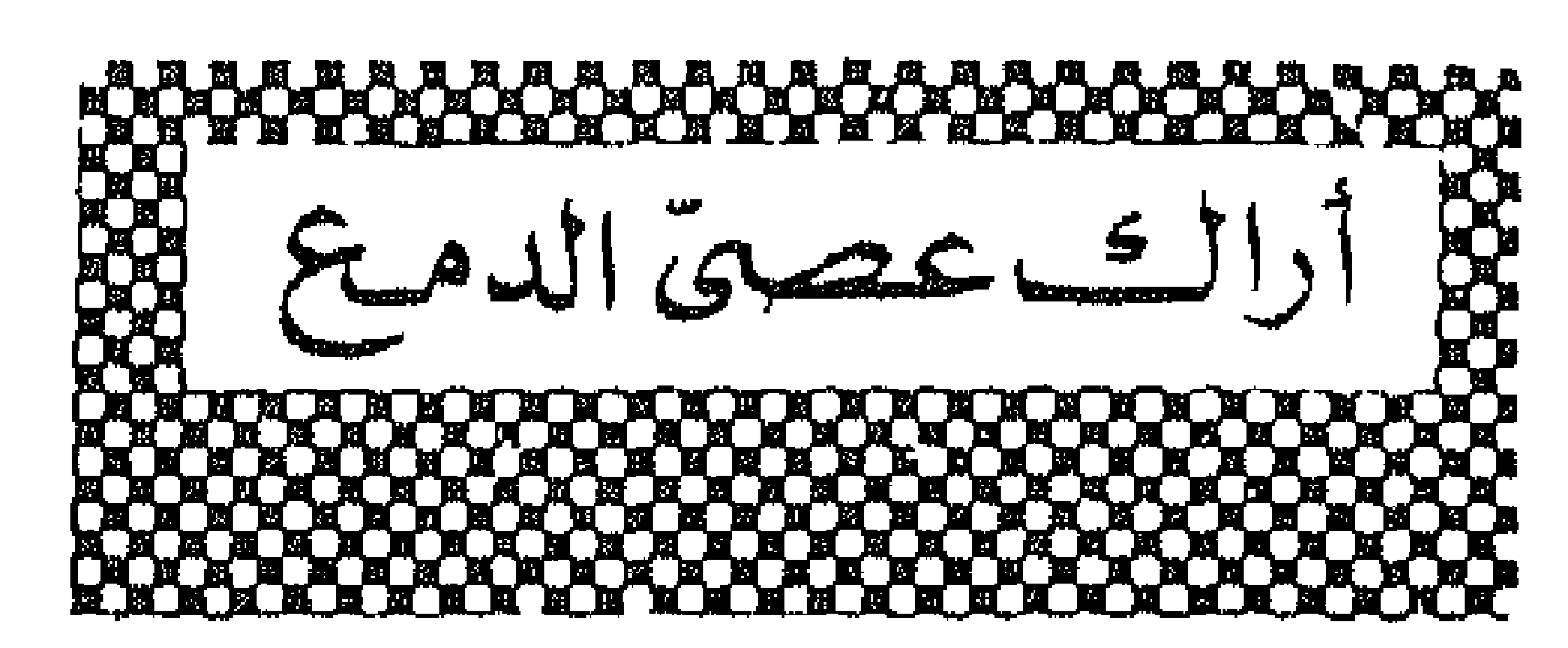
وبمثل هذه الروح فتح صاحبنا مكتبات الدار لكتب الناشرين الآخرين . إن القارئ يرفض أن يحرم نفسه من حرية الاختيار ، فهو يتجه إلى المكتبة التى فيها أكبر مجموعة من الكتب فى كل فرع من

فروع الثقافة . وعرض الكتاب المنافس مع كتاب الدار فرصة لدراسة السوق واختبار لنواحي القوة ونواحي الضعف فى مؤلفات الدار ومؤلفات الآخرين .

ومن حسن الحظ أن على رأس النشر فى الدار شاعراً كبيراً هو فى الوقت نفسه رجل أعمال . . وعادل الغضبان يتخذ من الشعر هواية ، ومن التعامل مع المؤلفين مهنة ؛ ومن الغريب أنه يستطيع الجمع فى عمله بين الحقيقة والخيال .

أما إسماعيل شوقى فهو المدير الفنى للمطابع . وهو يعمل فيها كالآلة فى أقصى سرعتها ، فإذا أراد التغيير انكب على متن مطبوع ليصحح أسلوبه ، وإذا أراد الترويح عن نفسه جمع بين العملين فى وقت واحد !

لقد نجح صاحبنا بنجاح زملائه فى دار المعارف ، وتوج زملاؤه فى الدور الأخرى هذا النجاح حين انتخبوه أول رئيس لاتحاد الناشرين ، ولكنه اكتشف أن وزارة الثقافة التى أنشأت الاتحاد لم تعترف به من الناحية العملية ، فاستقال بعد سنة واحدة من تولى الرياسة . وهو يدعو كل رئيس أن يستقيل من عمله إن وجد أنه لم يعد منتجاً فيه .



١٩٦٥ -





هكذا يتندر الناس كلما سمعوا اسم « اراك » وهو مختصر (المركز العربي للبحوث والإدارة) ، فيبتهج صاحبنا لأنه يرى فى هذا التندر نجاحاً للاسم الذى اختاره .

و« اراك » أصبح حلماً لصاحبنا بعد أن قام ببحثه الميدانى لدار الهلال فى سنة ١٩٤٢ ، فقد علم بالبحث إنجليزى كان مديراً لشركة فى القاهرة تستورد الصابون ومعجون الأسنان ، فقال لصاحبنا إنه لايؤمن بالبحوث الميدانية فى مصر ، لأن أهلها يكذبون ، فقد قام باستقصاء عن عدد الذين ينظفون أسنانهم بالمعجون فأسفر عن أن أكثر من نصف السكان يفعلون ذلك ، وهو ليس بصحيح إذ أن المستورد كله من معجون الأسنان لا يزيد على طنين فى العام وهو لايصنع فى مصر .

واطلع صاحبنا على الأسئلة التى وجهت للناس فوجد أولها هكذا : هل تنظف أسنانك كل يوم ؟ فرفع عينيه عن الورقة إلى وجه الإنجليزى قائلا : « هذا السؤال يا سيدى هو المسئول عن النتيجة الكاذبة التى وصلت إليها . إنك استثرت كرامات الناس بهذا السؤال ، فجاءت إجاباتهم تدافع عنها . إننى أقترح أن يكون السؤال : هل ترى أن تنظيف الأسنان بالمعجون والفرشاة ضرورى ؟ » قال : وما الفرق ؟ قال صاحبنا : « إن سؤالك يسأل المستهلك عن نفسه ، وسؤالى يسأله عن رأيه . سؤالك محرج ، وسؤالى لا إحراج فيه . وإذا كان المستهلك لا يرى ضرورة فى استخدام المعجون والفرشاة فلك أن تستنتج أنه لايستعملهما». واقتنع الإنجليزى بخبرة صاحبنا ، فطلب منه أن يقوم بالاستقصاء من جديد ، وجاءت النتائج منسجمة مع أرقام الاستيراد ، وعاد الاستقصاء

على المدير الإنجليزى بتوجيهات طورت سياسته التسويقية . وعاد على صاحبنا بسمعة زكته للقيام باستقصاء كبير للكوكا كولا.

كان ذلك فى سنة ١٩٥٠ ، وكانت الكوكا كولا قد غزت سوق المشروبات الخفيفة ، فرأى الأمريكيون المشرفون عليها فى القاهرة أن يستزيدوا من انتشارها بتعمق نواحيها التسويقية . وتقدم أحد الأساتذة المصريين بعرض قدر فيه أتعابه بثلثمائة جنيه ، وتقدم صاحبنا بعرض آخر قدر فيه أتعابه بثلاثة آلاف ، فقبل الأمريكان العرض الثانى! والذى أنشأ الفرق الكبير بين أتعاب صاحبنا عن استقصاء دار الهلال الذى لم يصل إلى مائة جنيه وأتعابه عن استقصاء الكوكا كولا ، هو أنه كان مدرساً بخمسة وعشرين جنيهاً فى الشهر ، فأصبح عضواً منتدباً لشركة الإعلانات الشرقية ، ومديراً لجريدة المصرى بخمسة آلاف جنيه فى السنة .

ولا ينسى صاحبنا أن أحد الباحثين معه استوقف سيدة فى الطريق العام وسألها عما تشربه ، فظنت به سوءاً وصفعته أمام رجل الشرطة ، فقاده هذا إلى القسم بتهمة معاكسة السيدات ! لقد بذل صاحبنا جهداً كبيراً فى إقناع المأمور أن الباحث لم يكن يريد من السيدة إلا أن تخبره بأنها تشرب كوكا كولا أو تفضل عصير الليمون !

وفى سنة ١٩٥١ قام صاحبنا ببحث ميدانى عن قراء الصحف ظهر منه أن أحب كاتب للقراء فى الأهرام هو « أحمد الصاوى محمد » ، وأحب كاتب فى دار الهلال هو «فكرى أباظة» ، وأحب كاتب فى المصرى هو « عبد الرحمن الخميسى » ! ودخل صاحبنا بهذه النتيجة على صاحب المصرى ، وكان الخميسى قد طلب منه علاوة رفضها ، فلما وقف على مكانته بين القراء طلب من صاحبنا أن يمنحه العلاوة دون أن يقول إنه رجع فيها لأحد . ودخل الخميسى على صاحبنا شاكراً ومحذراً بأنه سبق أن عرض الأمر على صاحب المصرى فلم يوافق عليه ، فلبس

صاحبنا مسوح الأسد وقال للخميسي : « إذا كان صاحب المصرى ملكاً فإننى رئيس الوزراء . إنه يستطيع أن يقيلنى ، ولكنه لايستطيع التدخل فى عملى . إنى مدير وهو ممول ، فعلاقتى به لاتزيد على علاقتى ببنك مصر. هل يتدخل البنك فى أعمال الجريدة؟ » فخرج الخميسى وهو يؤكد لكل من يقابله أن مدير المصرى هو أقوى شخصية فى الجريدة . إنه أقوى من صاحبها .

وفى سنة ١٩٥٥ قام صاحبنا ببحث كبير عن قراء صحف أخبار اليوم ، فأثبت البحث أن « أنيس منصور » من أحب الكتاب للقراء ، فأوفده صاحبا الدار فى رحلة صحفية حول العالم ، وأثبت البحث أن مجلة « الجيل الجديد » لامكان لها فى السوق فتقرر وقفها .

ثم قام « اراك » فى مستهل سنة ١٩٦٥ فكشفت بحوثه عن حقائق تقتضى كثيراً من التأمل . منها أن قراء الثقافة العامة أغلبهم من طلاب الجامعات ومدرسى التعليم الثانوى ، وأن العزاب يقرءون أكثر من المتزوجين ، وأن متوسطى الدخل يقرءون أكثر من الأغنياء ، وأن الشباب يقرءون أكثر من الشيوخ ، وأن المتخصصين فى مجموعهم لايقبلون على الثقافة العامة ، وإنما يقبلون على القراءة فيما تخصصوا فيه .

وقد أثبت البحث أن قرية غالبية سكانها من الأقباط فى الوجه القبلى تقرأ الكتب الإسلامية . فلما شك صاحبنا فى هذه النتيجة أرسل مستقصين جدداً، فإذا هم يؤكدون النتائج الأولى بل يزيدون عليها أن أهل القرية يشتركون مع المسلمين فى الاحتفال بمولد النبى . . . نتيجة تبدو غريبة ولكنها صحيحة !

وقد أشار صاحبنا يوماً على مصنع للصابون النابلسى أن يجعل أطراف القطع مستديرة بعد أن كانت مدببة حتى لا تؤذى الأيدى عند الغسيل ، فنقصت المبيعات نقصاً مفاجئاً . وقد تبين بعد الاستقصاء أن المستهلكين رأوا فى تدوير الأطراف انتقاصاً من حجم الصابون ، مع أنه كان يباع

بالوزن ! .. نتيجة غير منطقية ولكنها صحيحة !

وكان فى شارع تحت الربع محل صغير للأحذية يتردد عليه شيوخ الأزهر فيتربعون على حشية من القطن ويقيسون المراكيب وقد بدا لصاحبنا أن يرفع المستوى فأشار على صاحب المحل أن يضيئه بالنيون ويزوده بكنبة وحامل خشبى يستقبل أقدام الشيوخ فإذا الشيوخ يفرون من المحل ! ولعن صاحبه يوم عرف صاحبنا وعاد إلى حشيته .. نتيجة أخرى غير منطقية ولكنها صحيحة !

لقد وجد صاحبنا أن المنطق فيما تقدم كان من صنعه ، فقد تشكل وفق رأيه فى ربط المقدمات بالنتائج ، وقد يكون الربط فى ظروف مختلفه ولذلك يجىء البناء غير صحيح فى حقيقته ، وإن كانت عليه مسحة الحق . أما الواقع فهو صادق أبداً لأنه الحقيقة نفسها . والواقع إذا ترجم فى ظروف الشخص وأهدافه فإنه يكون منطقياً سليماً .

إن صاحبنا أصبح بعد هذه التجربة يعجب لمديرى الأعمال الذين يبنون قراراتهم على المنطق وحده لا على الواقع فتجىء النتائج مخيبة لمنطقهم . إنهم حين يتخذون المنطق أساساً لقراراتهم يفترضون أن البائعين والمستهلكين والوسطاء منطقيون ، وهم ليسوا كذلك ، فهم بشر يحبون ويكرهون ، وعلى قدر حبهم وكرههم تجىء تصرفاتهم .

إن صاحبنا وهو يجرى بحثه عن معجون الأسنان فى القاهرة كان يعرف أن معجوناً آخر انتشر فى أمريكا حتى أصبحت مبيعاته تمثل ستين فى المائة من مبيعات المعاجين جميعاً ، ولما سئل المستهلكون عن سبب تفضيلهم المعجون الرائج قالوا : إنه مطهر ؛ وهو سبب ظاهر البطلان ؛ لأنهم لايستطيعون الحكم على مدى تطهيره لأسنانهم . لقد وضع الإعلان فى أفواههم هذه الحجة فرددوها .

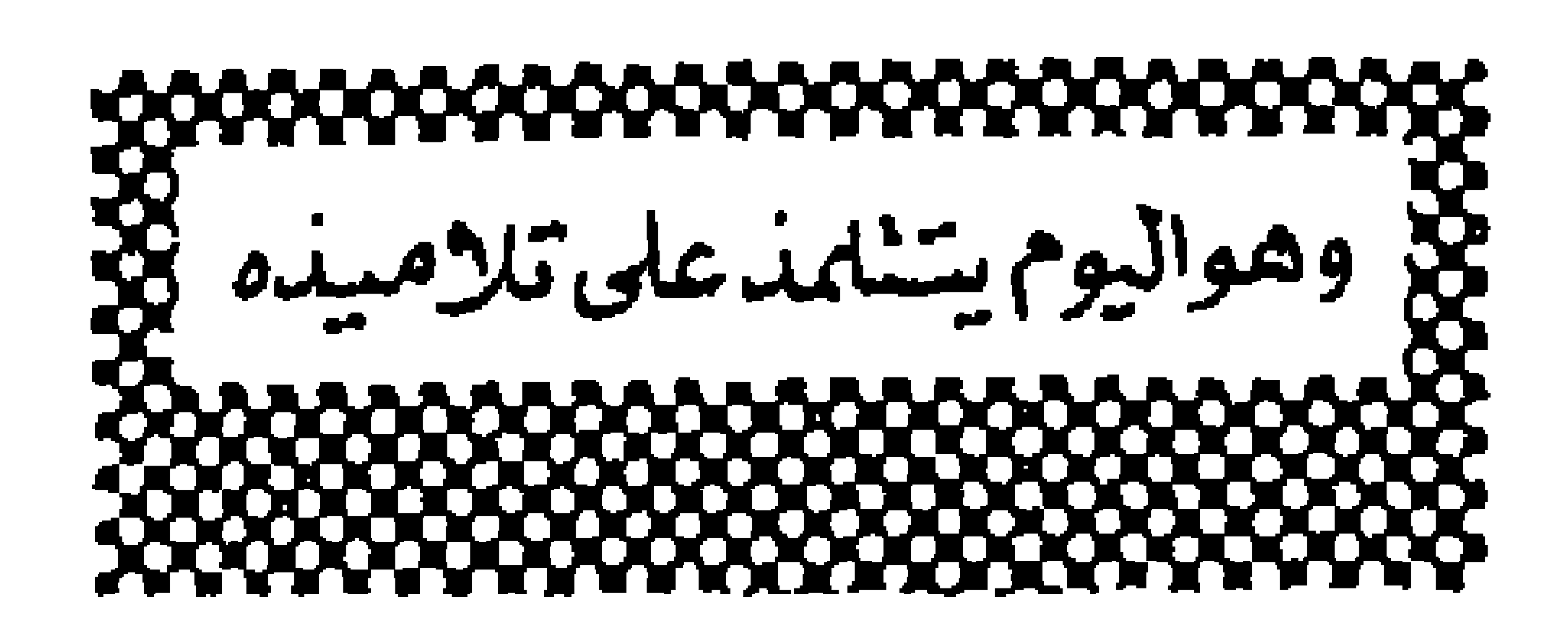
وقد راجت سيجارة رواجاً كبيراً فى إنجلترا ، فأراد مكتب للأبحاث أن يستقصى أسباب هذا الرواج ، وقدم لبضع مئات من المستهلكين

ست سجائر غير معلمة طلب من كل منهم أن يخرج من بينها سيجارته المفضلة فأخفق أكثر من تسعين فى المائة . وأكبر الظن أن المصادفة لعبت دورها مع بعض الناجحين . لم يبق إذن إلا أن المستهلكين يدخنون صورة ذهنية تكونت بفعل التعود .

وقد أراد أحد الباحثين فى أمريكا أن يقف على فعل الإيحاء فى الناس ، فقال فى جمع منهم إن لديه نوعاً قوياً من البن جاء من اليمن ، وإنه يريد التثبت من مدى تأثيره فى النوم ، وأعطى كلاً منهم عينة ليشرب قهوته منها ، فلم ينم القوم ، وعادوا يقولون إن البن مملوء بالكافيين ، مع أن الواقع أن الكافيين كان منزوعاً منه !

وبعد مدة جاءهم يقول إن لديه مسحوقاً من اللبن مقوى بمواد تفيد الصحة ولكنها تدعو إلى النوم ، وهو يريد التأكد من مدى تأثير هذا اللبن فيهم ، فنام معظمهم نوماً عميقاً ، مع أن اللبن كان مملوءاً بالكافيين !

إن صاحبنا يضع فى ذهنه هذه الأمثال وهو يقوم برسالته فى «اراك» فلا يضع سؤالا موجهاً حين يستفسر عن شىء ، ولايبدى استغرابه إذا جاءت الإجابة عنه غير منتظرة . إنه يحب الإنصات لأن الإنصات أداة الباحث فى الوصول إلى الحق ويؤمن بقول من قال : إن الله خلق للإنسان لساناً واحداً وأذنين اثنتين ليسمع ضعف ما يتكلم . ولكنه تعلم الكلام فى سنتين بعد ولادته ، ولايزال وقد تعدى الستين من عمره يروض نفسه على مزيد من الإنصات !


وهو اليوم يتتلمذ على تلاميذه

لكل إنسان فى عمره مراحل ثلاث : مرحلة أولى يكون فيها رأس ماله ، ومرحلة وسطى يقرض فيها تلاميذه ، ومرحلة ثالثة يسترد فيها ما أقرضه .

ولكن صاحبنا كان يقرض فى مرحلته الوسطى ويسترد ، بل لعله استرد ديونه من تلاميذه أضعافاً مضاعفة حين تسلق على أكتافهم إلى حيث أراد الله له أن يكون . ولكنهم فى مرحلته الثالثة لايزالون يعاملونه على أنهم مدينون له ، فهم يحيطونه بالعرفان ، ويضعون أنفسهم فى خدمته كلما بحث ، ويكملون خبرته بعلمهم الجديد كلما طلب المشورة .

وإذا كان من الناس من يختزن المعلومات دون هضم ، فإن منهم من يختزنها بعد أن تتمثل فى نفسه ثقافة خالصة ، ولكنه يخاف عليها من الضوء فلايفاعلها بمعلومات الآخرين ، ومنهم من يصب ثقافته فى بوتقة الحياة ، فيخرج منها بمشروعات اقتصادية ، ومبادئ سياسية ، وأصول أخلاقية ، وأسلحة فتاكة .

ولا يعرف صاحبنا مكانه من هذه المجموعات الثلاث ، ولكنه يعرف أنه تفاعل مع عدد مرموق من رجال الإدارة ورجال العلم فى مجال الصحافة والأبحاث . وهو يداعب بعضهم بهذه الصور القلمية .

أمين عدلى ــ نائب المدير العام لمؤسسة الأخبار

مدنى الأخلاق عسكرى النزعة . إذا تحدث عن عمله زمجر فى كبرياء ، وإذا تحدث عن نفسه اغرورقت عيناه فى تواضع . يحارب دفاعاً عن كل شبر من أرض الجريدة التى يعمل فيها ، ويحسب النسخ التى باعها فى الصباح ، فإذا وجد فيها زيادة باعد بين شدقيه

ليضحك طول النهار ، وإذا وجد فيها نقصاً فتش الأرض عمن كان السبب .

فى سنة ١٩٤٣ كان نى الصبح موظفاً فى مجلس الشيوخ ، وبعد الظهر محاسباً بجريدة المصرى . وانتدب صاحبنا من الجامعة خبيراً بالجريدة ، فلم يجد من يدله على طريق الإصلاح غير أمين علىل . وهمّ صاحبنا أن يعينه رئيساً اا ،سابات لولا أن رآه صغير السن .

وكان ماهر فراج هو الذى يوزع الجريدة بطريقة بدائية ، فرأى صاحبنا أن ينشئ مكتباً للتوزيع كان نواة لشركة التوزيع المصرية ، ثم لشركة توزيع الأخبار . وكان أمين علىل هو الرأس الفنى الذى كفل نجاح المشروعات الثلاثة .

ناظر مدرسة تخرج فيها كثيرون من رجال التوزيع . له من اسمه نصيب كامل ، فهو أمين لافضل له فى أمانته ، لأنها طبع وليست تطبعاً .

د . حسين الغمرى مدير عام دار المعارف

عصامى كبير . بدأ حياته العملية بالشهادة الثانوية مندوباً للبيع فى إحدى الشركات ، وفيها انتسب لكلية التجارة فحصل على البكالوريوس .

وأعلنت مؤسسة الأخبار عن حاجتها إلى رئيس لقسم الاشتراكات فاستجاب حسين الغمرى ، وطلب أربعين جنيهاً كمرتب ، ولكن صاحبنا بعد أن قابله زاد المبلغ من تلقاء نفسه إلى خمسين .

وتقلب حسين فى مناصب المؤسسة ، كما تنقل من البكالوريوس إلى الماجستير إلى الدكتوراه ، حتى انتقل صاحبنا إلى دار المعارف فعرض عليه أن ينتقل معهُ مديراً للتوزيع . ولكن حسين اعتذر ، فاستعان عليه صاحبنا بصديق فقبل . وفى دار المعارف تولى منصبه فتألق .

جمع خبرته من بيع الشاى وتوزيع الصحف والكتب ، ومن الإشراف

على الحسابات والإعلان بالبريد والعقل[ ]الإيلكترونى وجمع علمه من التحضير للشهادات والتحضير للمحاضرات فى الجامعة والمعاهد فتألف لديه من هذا كله مزيج إدارى متعادل .

توحى قامته الطويلة بأنه لا يعرف مكر القصار ، ولكن الواقع أنه قصيران فى قامة واحدة !

صليب بطرس – المستشار الفنى لأخبار اليوم

قطار سكة حديد ، يسير على قضيبين فلا يحيد ، يتحدث فى المحاسبة بلغة القانون ، ويتحدث فى القانون بلغة الأرقام ، ولذلك يرتاح إليه المحامون والمحاسبون على السواء .

كان يعمل فى الأربعينات مع محمود درويش بوزارة المالية ، وشارك معه فى إخراج الجنيه المصرى من دائرة الإسترلينى . وكان يعمل فى الوقت نفسه بجريدة المصرى محاسباً بعد الظهر فلما جاء صاحبنا خبيراً وجد عنده خبرة بالمحاسبة والاقتصاد والقانون والضرائب وشئون الورق والنقد ، فأقنعه بالاستقالة من الحكومة ، واستعان به فى تنظيم المصرى ثم نقله معه إلى أخبار اليوم ، فشغل منصب المستشار الفنى وبرع فيه .

أراد يوماً أن يتخفف من صداقة صاحبنا فلم يمكنه من ذلك ، والصداقة عقد بين طرفين ، فلا يستطيع طرف أن ينهيها إلا بموافقة الطرف الآخر . لم يوافق صاحبنا لأنه مدين له بجهوده فى الدفاع عنه وعن إخوانه مديرى أخبار اليوم حين أحيلوا جميعاً إلى النيابة الإدارية فى سنة ١٩٦٠ .

شديد الوفاء . شديد الحساسية . إذا أحبّ وهب ، وإذا عتب غضب ، ولكنه كثير الأصدقاء ؛ لأنه لايحب الانتقام .

خدم الإدارة الصحفية فى أكثر من ميدان ، ولعله أكثر الإداريين

انتشاراً فى الصحافة المصرية . ولكنه يؤثر منصب المستشار على منصب المدير وقد يكون ذلك لأنه المستشار الفنى الوحيد !

طلعت الزهيرى — مدير الإعلانات بأخبار اليوم

رأس مرفوع على قامة قصيرة . خبرة واسعة وباع طويل استغلهما فى الإعلان والطباعة فظفر بتقدير المعلنين . يكتب المذكرة فيربط فيها الأسلوب بالمنطق والرقم ، ويرسلها فتصيب من تشاء ، وقد ترتد إليه فتجرحه ، ولكنه سعيد بها على أى حال لأنها تعبر بدقة عما يراه حقًّا .

التقى به صاحبنا فى فناء المعهد العالى للعلوم المالية والتجارية ، وكان قد تخرج فيه لتوه ، فأخذه فى سيارته إلى شارع جلال ، وعينه محاسباً بشركة الإعلانات المصرية ، وبعد سنوات قليلة خرج اليهود من الشركة ، فخلا فيها منصب رئيس الحسابات ، واختاره صاحبنا لملء المنصب ، فلم يخب ظنه فيه . فقد عمل بالليل والنهار حتى ملأ الفراغ وهو لما يزل صغير السن .

وجاء مع صاحبنا إلى أخبار اليوم وكيلا لإعلانات الأخبار ، ثم مديراً لها ، فلمع كإدارى وكمحاسب ، ثم أحب العمل فى السوق بعد ذلك فنجح ولكن الصفة الغالبة بقيت أنه مدير .

إليه يرجع معظم الفضل فى نجاح الإعلان بالبريد . وقد كان عبد العزيز فريد هو الذى أشعل قنديل الزيت ، فجاء طلعت الزهيرى وأضاء الكهرباء . ولاتزال الكهرباء فى حاجة إلى أسلاك ومصابيح .

قيمة كبيرة لم تستنفد دنيا الإعلان كل طاقتها على الإنتاج .

عبد الحميد حمزوش — المدير العام لدار التحرير

مدير يحب الإصغاء لأن فيه بحثاً عن الحلول ، ومجاملة للعملاء . هو من القليلين الذين يفرقون بين المنافسة والعلاقة الشخصية ، وهو يعرف

طريقه إلى صيده فيسلكه فى سكون دون أن يشتبك فى مناقشات ومناوشات فرعية .

جاء من كلية التجارة إلى شركة الإعلانات المصرية وكانت ملأى باليهود ، فوجد فيه صاحبنا مادة طيبة لمصرى ناجح ، وعينه فى قسم التحصيل .

ولمع على الفور ، فلما جاء موعد العلاوات حصل على علاوة تزيد على ما حصلت عليه زميلة عينت قبله بشهرين . وغضبت الزميلة ثم لم تجد وسيلة للتعبير عن غضبها إلا أن تستقيل من عملها وتتزوجه . . . وهما الآن زوجان من أسعد الأزواج .

واستقال صاحبنا من شركة الإعلانات المصرية ، وتعاقب عليها مديرون كثيرون ، فكان عبد الحميد حمروش موضع تقديرهم على السواء ، وارتقى فى مناصب دار التحرير حتى أصبح مديراً عاماً لها .

وقف من المركز العربى للبحوث والإدارة موقف المعارضة الصريحة ، وأعلن أن مهمته كمدير لدار التحرير هى أن يدافع عن الجمهورية ظالمة أو مظلومة لا أن يكون قاضياً بينها وبين الصحف الأخرى ، فاحترم صاحبنا هذا المنطق وزاد احترامه لصاحبه .

لايعرف صاحبنا مديراً أرهق المحاسبة وإدارة الأعمال بالاستعمال مثلما أرهقهما عبد الحميد حمروش . إنه يهرش رأسه فى كل دقيقة ليدفع الشر عن داره ، ولعله قد نجح !

عبد الغنى عبد الفتاح — العضو المنتدب لمؤسسة روز اليوسف

عملاق عريض المنكبين . يحده شمالا رأس كبير يحيط بوجه مستدير . ويحده جنوباً قدمان كبيرتان يضرب بهما الأرض لتفسح له الطريق . ومن الشرق والغرب ساعدان يصلحان لمصارع .

دخل الإدارة من باب الحسابات . ولذلك يفضل النسب المئوية

فى التقارير على الصفات وأفعل التفضيل . ولكنه حين يبيع يرسل الحديث فى همس ويطوع الأرقام لمنطق الصفقات .

كان وكيل إدارة فى أخبار اليوم . وطلب إحسان عبد القدوس رئيس مجلس إدارة روز اليوسف من صاحبنا أن يزكى له مديراً للإدارة، فاختار عبد الغنى عبد الفتاح . ولكن عبد الغنى تردد ، فألح عليه صاحبنا حتى قبل ، وكان القبول بداية عمل خلاق فقد أصبح فى روز اليوسف مدرسة إدارية .

عصامى دخل سوق الوظائف بالشهادة الثانوية ، ثم انتسب لكلية التجارة ، فحصل على البكالوريوس ، وأصبح إلى جانب عمله الإدارى محاسباً وخبير ضرائب . ولما تولى شئون روز اليوسف تعمق شئون الطباعة وجدد فيها .

وفىّ لزملائه ورؤسائه القدامى . يزورهم كلما استطاع ، ويأخذ السوق منهم كلما استطاع أيضاً !

صديق لدود لرجال التحرير . يريد أن يخضعهم لقيود المطابع ، وهم يصرون على أنهم ليسوا صواميل ولوكره المديرون !

عبد الله عبد البارى — المدير العام للإعلانات فى الأهرام

قوام ممشوق وصوت خشن . أدب جم وتعامل لايعرف الرحمة . شباب العشرين وخبرة الثمانين ، ولذلك امتد فى وجهه أنف طويل على فم دقيق ليرسم علامة تعجب من هذا الخلط والمزج !

جاء فى سنة ١٩٤٩ إلى شركة الإعلانات المصرية ، وكان مندوباً لشركة مصر للطيران فى مطار ألماظة ، فما إن رآه صاحبنا حتى عرض عليه أن يعمل معه محرراً فى المكتب الفنى ؛ وقبل العرض . وكان فى المكتب خطاط يتولى رياسته . ففزع من النفوذ الذى أصبح لهذا الوافد الجديد . يمسك بسماعة التليفون فيأتى بالإعلان من مصدره

فى القاهرة أو فى فرشوط . وشكا الخطاط من أن الإدارة لاتتصل فى شئون المكتب برئيسه وإنما تتصل بعبد الله عبد البارى ، فرأى صاحبنا أن يصحح الوضع وعين عبد الله رئيساً ، فخرج الرئيس السابق إلى دار أخرى .

وسعد المكتب برئيسه الجديد ، ولكن الرئيس لم يسعد بالعمل المكتبى ، فجاء إلى صاحبنا يعرض أن يعمل مساعد مندوب ، ومنذ خرج إلى السوق عرف كيف يخاطب القلوب فيصل إلى الجيوب .

يجوب الدنيا بحثاً عن المعلنين وقد أغرق صفحات الأهرام بالمساحات المحجوزة ، وأغرق السوق بالبضائع المستوردة .

هو اليوم أحسن بائع للإعلان فى العالم العربى ، فهو يبيع وهو يتنفس مستعيناً بلغات ثلاث ، وخبرة كبيرة بالناس وسحر فى التعبير والتصوير .

د. فؤاد شريف – المستشار الاقتصادى لهيئة الأمم المتحدة

غابة على شكل شنب ، وعناد يعبر عن نفسه فى صوت خفيض فتحسبه دبلوماسية أصيلة ، وقامة قصيرة تحمل دماغاً كبيراً فى إدارة الأعمال.

كان تلميذاً لصاحبنا فى جامعة فاروق ، وعاد من أمريكا بعد أن حصل على الدكتوراه من جامعة شيكاغو . وبعد قليل من التدريس فى كلية التجارة بجامعة القاهرة وثب إلى مركز علمى خطير هو رئيس مجلس إدارة المعهد القومى للإدارة العليا . وبعد قليل هجره إلى مركز خطير آخر هو المستشار الاقتصادى لهيئة الأمم المتحدة ومعه زوجة وخمسة أولاد .

وقد بلغ من وفائه لرسالته وهو رئيس للمعهد القومى أنه لم يرفض طلب صاحبنا حين دعاه أن يكون عضواً فى المجلس الاستشارى لأراك ، بل أخذ مكانه فى رعايته مع الدكتور حسن توفيق والدكتور حسن حسين والدكتور مصطفى زهير والدكتور إبراهيم سعد الدين .

قاد يوماً حركة التدريب الإدارى فى الجمهورية العربية المتحدة ،

فوقع الخلاف بينه وبين كليات التجارة فى أيهما أحق بالتدريب. ولكن وزارة التعليم العالى عادت فاعترفت بمكانته حين عينته عضواً فى لجنة الترقية لكرسى الأستاذية .

لعله يحن يوما إلى إدارة الأعمال باللغة العربية !

د . مصطفى زهير — عميد كلية التجارة بجامعة عين شمس

عقل كبير فى جسم نحيل . وقد تعب الجسم فى مراد العقل ، فجعل يشكو ويئن .

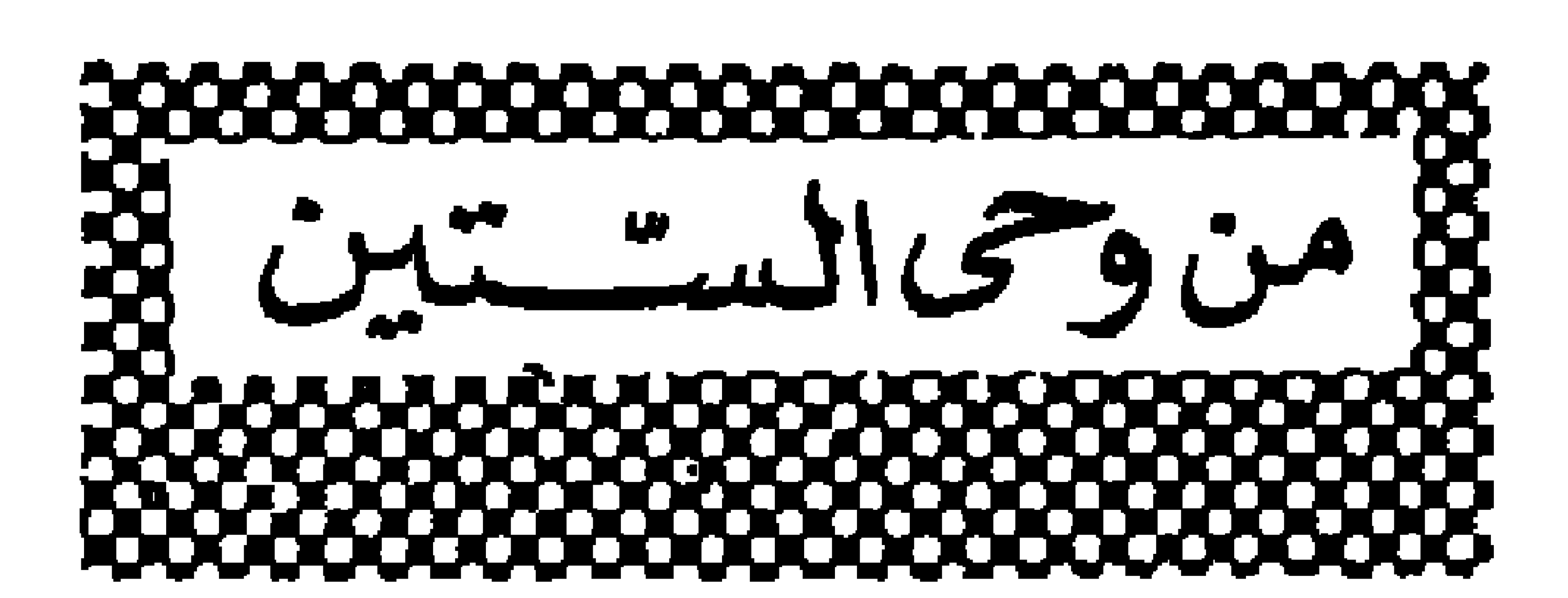
كان تلميذاً لصاحبنا فى المعهد العالى للعلوم المالية والتجارية ، فأصبح أستاذه فى بحوث التسويق . فيه تواضع العلماء وعزوف الأنبياء . ولذلك لم ينافسه أستاذ حين جاءت إليه العمادة فعرضت نفسها عليه .

لجأ إليه صاحبنا فى بحث ميدانى عن نوع قراء المصرى ، ولجأ إليه فى بحث آخر عن صحف أخبار اليوم ، ثم عرض عليه عضوية المجلس الاستشارى فى المركز العربى للبحوث والإدارة فاستجاب دائماً كعالم باحث، لا كرجل أعمال مستغل .

وصاحبنا يشهد كعضو فى لجنة الترقية لكرسى الأستاذية أن أحداً من الأعضاء لم يناقش ترقية مصطفى زهير أستاذاً فى إدارة الأعمال بعد الاطلاع على بحوثه . فقد انعقد إجماع الأعضاء فى اللحظة التى تلاقت فيها نظراتهم ، وكأنهم يقولون فى نفس واحد : « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » !

وصاحبنا عضو فى مجلس القطاع التجارى للجامعات ، والدكتور زهير عضو فى هذا المجلس . وزمالتهما تعطى صاحبنا إشباعاً من نوع خاص يصل إلى منتهاه حين يتحدث زهير فى صوت خفيض مستأذناً على الأسماع قبل أن يصب فيها خلاصات نقية من أبحاث اللجان التى يشترك فيها .

ليته يعطى السوق بعض ما يعطى الجامعة !


من وحي الستين

لم يكن صاحبنا يدرى ما فعلت به الأيام حتى سافر مع زوجته إلى لندن بعد أن بلغ الستين فخطر لهما أن يزورا مسكنهما الذى كانا فيه منذ أكثر من ثلاثين سنة حين كان صاحبنا عضواً فى البعثة وكانت امرأته معه .

كان صاحبنا يقطع المسافة من مسكنه إلى محطة المترو ذهاباً وعودة صباحاً ومساء فلا يجد فى ذلك عناء . ولكنهما حين أرادا أن يقطعا هذه المسافة فى هذه المرة خيل لهما أن البيت انتقل من مكانه ، أو أنهما أخطأا طريقهما إليه ، فقد بلغ منهما التعب مبلغه ، وعدلا عن العودة لمحطة المترو سيراً على الأقدام كما كانا يفعلان من قبل .

جعلا يدوران حول المنزل : هنا كنت أستذكر دروسى ، وفى هذه الحديقة كان طفلى يلعب ومن هذا الشارع كنا نمر إلى السوق . . وفيما هما يعتصران ذكرياتهما رآهما سيدة عجوز فى البيت المقابل . قالت لقرينها إنها تذكر هذين الزوجين ، فقد كانا هنا منذ مدة طويلة ، وكان معهما غلام . فاستكثر عليها هذه الحدة فى الذاكرة . وخرج يتمسح بصاحبنا قائلا : « هل أستطيع أن أساعدك يا سيدى ؟ » قال : « شكراً ، لقد جئت أستعيد ذكرياتى منذ ثلاثين سنة فى هذا البيت » . فصرخ الرجل مهنئاً نفسه بذاكرة زوجته ، ودعا الزوجين إلى فنجان قهوة معهما .

إن صاحبنا أتم فى نوفمبر الماضى اثنتين وستين سنة من عمره الذى لايدرى أيطول أم ينتهى قبل هذا الشهر . لقد مر على مولده هذا العمر فترك كل يوم منه أثره فى تجاعيد الوجه ، وبياض الشعر ونظرة العين . ولم تفلح قطع الغيار من نظارة وأسنان صناعية فى استعادة ما ضاع من

نور عينيه وقدرة فكيه ، فقد أخذت زيادته فى النقص ونقصه فى الزيادة .

لقد قال الشاعر القديم :

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب !

وصاحبنا يشكو شيخوخته إلى شبابه مع هذا الشاعر ، فقد كان يجرى إلى مستقبله وهو أمامه ، ثم أصبح يمشى والمستقبل خلفه . كان يفكر بقلبه ، فأصبح يحب بعقله ، كان يبتسم للدنيا فتضحك له ، ولكن ابتسامته بهتت مع الأيام ، فلم تعد تجذب هذه اللعوب . كان بمفرده خفيفاً يهرول ، فأصبح مثقل الكاهل بما حوله من عيال وما فوقه من أعباء .

ولكن هل الصورة قاتمة إلى هذا الحد ؟ كلا ، إن فى الشيخوخة جمالا لايعرفه الشباب . فالحب بعد الستين من النوع المتقد غير المشبوب ، هو كالنبيذ المعتق يزكو طعمه بين الزوجين بفعل السنين . والحكمة بعد الستين تجعل الفرد ينعم بالحياة على مهل كأنما يمضغها مضغاً . والصداقة بين الشيوخ تاريخ حافل وتقدير متبادل ، فهى تنتج عن تلازم طويل وتنبع من وفاء مقيم . وحياة الأسرة تاج على رأس عميدها لايراه إلا من فاته القطار فلم يكمل نصف دينه . فى مثل هذا يفكر صاحبنا وهو يبعد عن الستين ، ثم يرجع بذاكرته إلى وراء . .

ترى هل كان خيراً توافره على العمل الإدارى طول حياته وانشغاله عن العمل السياسى ؟ إنه ليس نادماً على هذا ، وليس فخوراً به . فقد كره السياسة فتركها ، وأحب الإدارة فأقبل عليها . والناس فى الدنيا يتصرفون حسبما يحبون ويكرهون ، ثم تجىء عقولهم فتضفى على ميولهم اعتبارات منطقية هى فى الحقيقة مسوغات وليست أسباباً .

لقد نشأ صاحبنا فى بيئة أزهرية فيها خطب ومظاهرات ، كان من الممكن أن تسلمه إلى العمل الصاخب ، ولكن أباه فرض على

طفولته نوعاً من التسليم بالواقع ، والانصياع لمن هم أكبر منه ، فانصبت شخصيته فى قالب من الرتابة يصلح للإدارة ولا يصلح للسياسة .

وهل كان صاحبنا حراً فى اختيار مهنته الإدارية ؟ لقد كان ممكنا أن يصبح أزهرياً ، ولكن قريبه استثار والده فأدخله المدرسة . وكان من الممكن أن يكون مهندساً أو طبيباً ولكن مجموعه لم يمكنه من ذلك ، وكان من الممكن أن يدخل مدرسة المعلمين فرسب فى الكشف الطبي ، وكان من الممكن ألا يدخل مدرسة التجارة العليا فأسعفه معاون المدرسة . لقد كان سفره إلى إنجلترا بفعل الظروف ، وعمله فى المصرى طارئاً . ونجاحه فيه من صنع السماء . ولم يكن ليعمل مديراً فى أخبار اليوم لو لم يقفل المصرى أبوابه . ولم يكن ليسعد بهذه السيدة التى تزوجها لو لم تخلق الحياة بينهما توافقاً خاصاً .

« كل ميسر لما خلق له » ! هكذا يؤمن . وكل سنة مرت من عمره زادت هذا المعنى رسوخاً فى نفسه ، ولذلك لم يستبد به الغرور كثيراً فى إثر نجاح حققه ، ولا استبد به الأسف كثيراً على خير فاته . كان يؤمن دائماً بأن العامل فى الدنيا كالسابح فى المحيط . لابد أن يتعلم السباحة لكى ينجو ، ولكن موجة عاتية قد تداهمه برغم ذلك فتغرقه .

وهل ينسى أن ولده تخرج فى كلية الهندسة بالقاهرة ، ثم فى أكبر معهد بسويسرا ، وعاد زينة المهندسين ، ثم أوفدته شركته إلى ألمانيا فى عمل كبير ، فسافر بالطائرة جالساً فى مقعد مع المسافرين ، وعاد بالطائرة مسجى فى صندوق مع أمتعتهم ؟ إن والده لم يعبر عن حزنه عليه بغير التسليم ، ولكن هذه الفلسفة لم تتحكم فى آرائه ولم تغير فى تصرفاته .

كان يتقبل بسهولة ما يقال له من خرافات تنسب إلى الدين ، ومن كرامات تشد إلى الأولياء فأصبح يطالب نفسه بالتفكير .

أما ميوله فظلت فى جوهرها واحدة . إنه يحب القراءة ، لأنه

لا يشبع من المعرفة ، ولايحفل كثيراً بما يذاع فى الراديو أو فى التليفزيون . وهو يغشى دور السينما تضامناً مع زوجته وابنته ، ولكنه يشهد الفيلم فلا يرجو من الله إلا أن ينعم عليه بنعمة الخلاص منه . وهو يأكل الطعام الأوربى ولكنه لايفضل شيئاً على الثريد واللحم المسلوق ، وبينه وبين مستخرجات الفول حب ، ولكنه مفقود ،لأنه أصبح عسر الهضم على معدته . وفى خلقه صرامة موروثة تسىء إليه أحياناً فيحاول التخلص منها ، ولكنها مركبة فى أعماق نفسه . .

ولما تحررت آراوءه أصبح لايفرق فى عمله وصداقته بين مختلف الأديان . كان سكرتيره فى شركة الإعلانات مسيحياً ، وزملاؤه من اليهود ، وكان الداخل إليه يمر فى طريقه بآنسة قبطية ورجل يهودى، وقد علق على ذلك مرة أحد المتعصبين فقال : إن مدير أخبار اليوم وهو مسلم لايحب المسلمين ، فسأله أحد الحاضرين مستغرباً : « ومتى أسلم مدير أخبار اليوم ؟ »

لقد أنفق صاحبنا صدر حياته قريباً من الأزهر والأزهريين ، فكان يتمنى دائماً لو ظهر من بين علمائهم مجتهد جديد — وباب الاجتهاد مفتوح — يعيد كتابة الدين فى حدود القرآن والحديث بما يوفق بين المذاهب الأربعة ، ويتمشى مع تطور العصر . إن الدين الإسلامى ينشر لواءه فى إفريقيا وآسيا ، وصاحبنا يريد أن يرى ألويته فى أوربا وأمريكا . وقد فرح بإنشاء جامعة الأزهر ، لأنه يرى أن العالم الدينى لاغنى له عن لغة العلم ، فالدين أهداف والعلم أساليب .

وقد سمع صاحبنا مع أعضاء كثيرين فى نادى الروتارى بهليوبوليس من كبير من علماء المسلمين — وكان يحاضرهم بعد الإفطار فى رمضان الماضى — أن « أبا حنيفة النعمان » أفتى بأن الخمر هو مااستخلص من عصير العنب ، وهو الذى يصدق فيه أن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، أما ما اصطلح الناس على تسميته نبيذاً كعمر الخيام فى مصر ،

وكالعرق فى لبنان فهو حرام . والويسكى فى الاصطلاح الشرعى نبيذ لأنه ليس مستخرجاً من عصير العنب ، فشاربه إذا انتشى لايرتكب محرماً ، وإنما يرتكب المحرم إذا سكر . وعرض صاحبنا هذه الفتوى فى محاضرة له بجمعية العلاقات العامة بالقاهرة فاستغربها كثيرون من الحاضرين . ثم نقلها للصديقين ؛ الدكتور محمد كامل حسين (مدير جامعة عين شمس السابق) ، والدكتور محمد سليمان (أستاذ الطب الشرعى بجامعة القاهرة) وهما عضوان فى المجمع اللغوى ، فوافقا على أن ما نسب إلى أبى حنيفة صحيح ، وإن كان لم يقل به الشيخان ، ثم أضافا أن أبا حنيفة سئل إن كان يقبل شراب النبيذ فقال ما معناه، إنه لا يرضى ذلك لنفسه .

ولقد رجع صاحبنا فى هذا إلى فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف مفتى الديار المصرية السابق وعضو جماعة كبار العلماء فأحاله إلى كتابه « فتاوى شرعية وبحوث إسلامية » الجزء ١ — ٢ وقد جاء فيه فيما يتعلق بالمسكر والخمر :

« عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "كل مسكر خمر وكل مسكر حرام" رواه الجماعة إلا البخارى وابن ماجه وفى رواية مسلم : "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" » .

وجاء فيه أيضاً :

« وعن أبى أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تذهب الليالى والأيام حتى تشرب طائفة من أمتى الخمر ويسمونها بغير اسمها" » (رواه ابن ماجه)

ويتابع فضيلة المفتى السابق كلامه فيقول :

« وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به "وهو من أعلام النبوة" فقد سمى الناس فى الأزمنة الأخيرة الخمر بأسماء استحدثوها كالويسكي والروم والبيرة والكونياك وما إلى ذلك مما ابتدعوه فى الأسماء لما حرمه الله سبحانه فى المسميات » .

* * *

وقد سمع صاحبنا أن تنظيم النسل حرام ، وسمع أنه حلال ، سمع أن للتأمين حرام ، وسمع أنه حلال . بل سمع أن الموسيقى وإقامة التماثيل من المحرمات .

أما تعدد الزوجات وضربهن فقد أفتى بعض رجال الدين بأنهما حقان لا يجوز لمن يمارسهما أن يسىء استعمالهما ، فى حين اتجه آخرون إلى أنهما رخصتان مطلقتان .

وأفتى بعض رجال الدين بأن المرأة لايجوز لها أن تسفر عن شعرها أو أظافرها وإلا ارتكبت محرماً ، فى حين اتجه البعض الآخر إلى أن الهدف هو عدم إثارة الفتنة ، فالفلاحة التى تكشف عن وجهها وساعديها وهى تعمل بالمحراث لاترتكب محرماً ، ولكن التى تهز نفسها فى الطريق العام بقصد الإثارة ترتكب محرماً ولو كانت متدثرة .

ورأى صاحبنا المسلمين فى جاكرتا يغشون المساجد ويحرصون على أداء الصلاة والحج ، ولكنهم يحلّون كثيراً مما نحرمه ، فلما سألهم فى ذلك قالوا إن الله لايغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك ! وقد فرح صاحبنا

حين عرف أن الأزهر بعث عدداً من رجاله إلى أندونيسيا لتصحيح ما اشتبه على أهلها .

وهناك أمور استحدثت فى النصف الثانى من القرن العشرين كركوب الطائرات . إن فى الطائرات ماء ولكن الوضوء فيها غير ممكن ، وليس فيها تراب فالتيمم غير ممكن ، فكيف تكون الصلاة ؟

كان السفر على الجمال لعدد قليل من الفراسخ يجيز الإفطار فى رمضان ، لأن هذه المسافة كانت تستغرق بضع ساعات ، فأصبحت تستغرق بالطائرات دقيقة واحدة ، وبالقطارات السريعة بضع دقائق ، فهل يجوز للصائم مع ذلك أن يفطر ؟

والفدية للمضطر كانت قدراً صغيراً من البر أفلا يزال هذا المقدار يكفى فى سنة ١٩٧١ ، أم يحسن النظر فى دفعه عيناً أو نقداً رعاية لارتفاع مستوى الدخل ؟

إن صاحبنا يعرض هذه الأمثلة الخلافية ، ولا يدعى لنفسه أهلية الإفتاء فيها ، وإنما يدعو إلى مؤتمر إسلامى كهذا الذى عقد أخيراً فى طرابلس الغرب ليقول كلمته فى كل منها .

وأنفق صاحبنا سنوات من عمره فى التعليم الجامعى . وهو لايستطيع أن يقنع نفسه حتى الآن بأن تكافؤ الفرص يعنى أن تمضى الدولة فى الإنفاق على الطالب فى الجامعة مهما طال بقاؤه فيها . إن الذى يستحق رعايتها هو الطالب الناجح . أما الذى يرسب فعليه أن يدفع المصروفات. ثم إن الدولة أعطت التعليم الجامعى من عنايتها أكثر مما أعطت التعليم الفنى ، فنشأ هذا الفراغ الذى نحسه فى الكفايات .

إن الجامعات ضاقت بطلابها ، وعجزت عن تعليمهم بعد أن صارت تحشر كل سمائة فى مدرج ، وتسمح لخمسين طالباً أن يستديروا حول مريض واحد يفتح فمه ، فيحاولون مشاهدة ضرسه والطبيب يخلعه . لقد أصبح يجدر بشهادات التخرج أن تذكر أن فلاناً أمضى خمس سنوات

فى كلية كذا بدل أن تقول إنه تخرج فيها .

إننى أقترح على الدولة أن تفتح معاهد عملية يدخلها التلاميذ بعد الإعدادية ، فيتخرجون فيها سباكين أو برادين أو لحامين أو ميكانيكيين أو كهربائيين أو عمال تليفون . فالتلميذ إذا دخل المرحلة الثانوية أصبح من حقه أن يدخل معهداً عالياً أو كلية ، لأنه إذا لم يدخل تعطل ، وما دامت الدولة لاتستطيع توفير الأماكن لجميع التلاميذ فى الجامعات فعليها أن تنشئ طرقاً فرعية فى مرحلة مبكرة تخفف الضغط على الطريق العام .

إن الرئيس الخالد جمال عبد الناصر أقام السد العالى فى أسوان ولم يقمه فى دمياط ، وكما حفظ السد العالى مياه النيل من أن تذهب بدداً فى البحر ، كذلك تهيئ هذه المعاهد العملية لتلاميذها أمكنتهم ، وتحمى الجامعات من التزاحم ، وهو اتجاه يستند إلى الكفاية ولايخل بمبدأ تكافؤ الفرص ، ويسد فراغاً قائماً فى الصناعة ، ويخفف زحاماً هائلا على الكليات ، خصوصاً بعد أن تعهدت الدولة بتوظيف خريجيها سنوياً فى شركات القطاع العام .

وترك صاحبنا عمله فى الجامعة إلى الصحافة فازداد إيمانه بوظيفتها الكبرى ، ولكنه ود لو أصبح كل محرر فنياً فى ميدانه ، فلا يكون مندوب الجريدة فى وزارة التعليم العالى إلا جامعياً ، ولايكون مندوبها فى وزارة الصحة إلا من خريجى الطب أو الصيدلة . وفى وزارة الاقتصاد أو الخزانة أو التموين إلا من خريجى التجارة أو الحقوق .

إن المندوبين يختارون لصلاتهم بمنابع الأخبار . و بعض المحررين يعتمدون على رشاقة الأسلوب أكثر من اعتمادهم على المادة العلمية . إن أحد المحررين كتب يوماً فى جريدته عن قانون صدر فأثنى عليه وبشر بنتائجه الاقتصادية الطيبة ، ثم قابل صاحبنا فى نفس اليوم يسأله عن الحكمة من إصدار هذا القانون !

والصحفيون – وصاحبنا منهم – يتمتعون بمزايا قد تقتضيها طبيعة عملهم فى الانتقال واستخدام التليفون ، ويتمتعون بمزايا أخرى شخصية لا يجد صاحبنا مسوغاً لها . منها ألا تخصم من مرتباتهم نسبة حين يتغيبون بسبب المرض على خلاف سائر العاملين . ومنها أن إجازاتهم شهر فى السنة ، على حين يستحق العاملون معهم فى نفس الدار أربعة عشر يوماً فقط . إن هذه الطائفية فى الصحافة قد آن لها أن تزول فى ظل الاشتراكية . كما يجب أن تزول فى الجامعة امتيازات أبناء الأساتذة فى دخول الكليات .

وانتقل صاحبنا من الصحافة إلى صناعة الكتاب ، فراعه أن الناشرين يعنون بمادة الكتاب ولا يعنون بإخراجه وتسويقه . إن الكتاب سلعة ولو كره النظريون . والسلعة شكل ومحتوى ، والطلب عليها مشتق من شكلها ومحتواها .

إن عدم الاهتمام بتوفير الورق والحبر وآلات الطباعة الحديثة للكتاب المصرى أثر فى رواجه خارج الجمهورية العربية المتحدة ، فنزل توزيعه إلى ما يعادل ثلاثين فى المائة من مجموع الكتب العربية ، ولو كانت المادة وحدها كافية لبقى الكتاب المصرى فى مكانته الأولى .

والذى يدعو صاحبنا إلى هذا النظر إيمانه بأن العمل الناجح هو الذى يزيد الإنتاج ، فالإنتاج هو وعاء الحقوق ، والحقوق هى وعاء السعادة .

إن صاحبنا بهذا الإيمان يلقى نظرة راضية على ماضيه ونظرة باسمة على حاضره ، ونظرة مطمئنة إلى أيامه الباقية ، ثم يرفع بصره إلى السماء راجياً أن يوفق الله كل داعية إلى أن يسأل نفسه هذا السؤال :

هل من شأن هذا الذى أدعو إليه أن يزيد الإنتاج ؟

فهرست

صفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٢٣٣٦ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١

